فصول
في الشعر المُحدَث

عبد العالي مجذوب

الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فصول

في الشعر المُحدَث

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اسم الكتاب: فصول في الشعر المُحدَث

اسم الكاتب: عبد العالي مجذوب

الطبعة الأولى، 2015.

رقم الإيداع القانوني :2015MO0483

الترقيم الدولي (ردمك) : 978-9954-34-942-7

الإخراج: دار مجد للنشر و الإنتاج . فاس ، المغرب

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الإهداء

إلى روح الوالد الحاج إدريس مجدوب

رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه أحسن الجزاء وأوفاه،

وتولاه بعفوه وكرمه، وأسكنه فسيح جناته ،

آمين

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

محتويات الكتاب

الإهداء _____ ***3***

محتويات الكتاب _____ ***4***

تقديم _____ ***6***

الفصل الأول _____ ***12***

في اللغة والاصطلاح _____ ***12***

في الاصطلاح اللغوي _____ **12**

في الاصطلاح الشرعي _____ **13**

في الاصطلاح الأدبي _____ **16**

الفصل الثاني _____ ***20***

الشعر المُحدَث والشعراء المُحدَثون بين علماء اللغة ونقاد الشعر _____ ***20***

حجج المتعصبين للقديم _____ **26**

التعصب للقديم بسبب الحاجة إلى الشاهد اللغوي _____ **30**

استحسان الشعر المحدث في ذاته _____ **37**

خاتمة الفصل _____ **38**

الفصل الثالث _____ ***41***

الشعر المحدث والشعراء المحدثون في الخطاب النقدي الحداثي ***41***

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحداثيّون والشعر المحدَث _____ 41
مزاعم أدونيسية _____ 43
التعليق الأول _____ 45
التعليق الثاني _____ 47
أحكام نقدية على غير أساس _____ 50
تناقض وتلفيق وتزوير _____ 57
الإديولوجيا وصناعة المسوغات للأحكام الجاهزة _____ 64
الصورة الأولى _____ 64
الصورة الثانية _____ 66
الصورة الثالثة _____ 72
مثالان آخران على الصورة الثالثة _____ 73
المثال الأول _____ 73
المثال الثاني _____ 76
أبو تمام كما أراده أدونيس _____ 82
الغرابةُ الشعرية الممدوحة _____ 87
خاتمة الفصول _____ *92*
ثبت المصادر والمراجع _____ *95*

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

فصول في الشعر المُحْدَث

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم النبيئين والمرسلين، وعلى آل بيته الأطهار، وصحابته الأخيار.

(رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) (طه/25-28)

(سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم) (البقرة/32)

وبعد، فقد كثرت الدراسات والأبحاث الأدبية والنقدية التي تناولت ظاهرة "الشعر المُحْدَث" في تاريخ شعرنا العربي تأريخا ونقدا وتفسيرا وتقويما.

وتمتاز الكتابات النقدية الحداثيّة[1] من بين هذه الأبحاث والدراسات، بإفراطها في تفسير هذه الظاهرة الأدبية، وتقويم

[1] أستعمل هنا وصف "حداثية" بالمعنى الإديولوجي اللاديني، الذي يجتاح حياتنا الفكرية والسياسية والاجتماعية، وخاصة في مضمار الآداب والفنون. ويعدّ أدونيس(علي أحمد سعيد إسبر)، في رأيي، على رأس هذا الاتجاه، لأنه يمتاز بغزارة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خصائصها، ووزن قيمتها الشعرية، حتى ذهب أدونيس، في بعض استنتاجاته، إلى أن الشعر المُحْدث قد سبق الحداثةَ الشعرية الغربية بحوالي عشرة قرون، وزعم أن التأريخ الحقيقي للشعر العربي يمكن أن يبدأ "من بشار بن برد، من زاوية الصراع أو "الجدل" بين "القديم" و"المحدث"."[2]

وسأحاول في فصول هذه الدراسة رفعَ بعض الالتباسات المتعلقة بهذه الظاهرة، والنظرَ إلى الشعر المُحْدَث في صورته "الطبيعية" وحجمه "الحقيقي"، بما له وبما عليه، كما عرفه مَن عاصروا نشأته، وكما تناوله بالنقد كلٌّ من المعارضين والمؤيدين. وسأختم هذه الفصول بمناقشة بعض آراء الحداثيّين-بالتركيز على آراء أدونيس-واستنتاجاتهم بخصوص دراسة هذه الظاهرة الأدبية التاريخية.

لقد أشبع نقادنا القدماء الشعرَ المُحدَث دراسة ونقدا وتقويما. وهذه مصنفاتهم-باستثناء بعض المقالات والمواقف المحفوظة على بعض المتعصبين من علماء اللغة وطلاب الشاهد اللغوي-تخبرنا أن الشعر المُحدَث والشعراء المُحدَثين قد تبوآ في تاريخ الشعر العربي المكانة التي استحقاها، مرة بزيادة من المعجبين المؤيدين، ومرة بانتقاص من المتحاملين المعارضين.

وليس هناك، بعد ما قاله القدماءُ في هذا الباب، أي موجب، ولا أي معنى، لدعوى الحداثيّين، في زماننا-وعلى رأسهم أدونيس-أن الشعر المُحدَث قد ظل محاصرا ومطاردا ومتهما، وأن الشعراء المُحدَثين المبدعين قد عاشوا دائما هدفا للنقاد الاتباعيين، الذي كانوا

الكتابة ووضوح الفكر في هذا الباب، ومن ثَمَّ، فإني أراه مثالا غنيا جامعا فيه الكفاية والغناء.

[2] بيان الحداثة، مجلة "مواقف"، ص146. بدأ أدونيس في إصدار هذه المجلة سنة1969.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يمثلون سلطة التقاليد والنموذج الثابت الخالد، في صورتيها الدينية والأدبية. ويمكن للقارئ المهتم أن يُراجع تفصيلات هذه الدعوى، مثلا، في كتاب "الثابت والمتحول"، لأدونيس (أحمد علي سعيد)، الذي أعدّه رأسَ المدرسة الحداثيّة اللادينية المتطرفة في العصر الحديث.

لقد ذهب أدونيس كلَّ مذهب، وضربَ في كل الاتجاهات، ليثبتَ، حسب مسلّماته المسبقة وأحكامِه القبْلية المبيَّتة، أن الشعر المُحدَث، في تراثنا الأدبي، هو سلفُ الشعر الحداثيّ، الذي يتربع اليوم على عرش الشعر، والذي يمثله أدونيس ومَن يسير على خطاه من التلامذة والأتباع والمقلِّدين.

لقد زوّر الحداثيّون اللادينيّون-وما يزالون يفعلون-الأخبارَ والحوادثَ والروايات التاريخية، واقتطعوا النصوصَ من سياقاتها الطبيعية، لتوافق هواهم ومقاصدَهم، وانتقوا من الأسماء والأحداث والوقائع، بعد تأويلها حسب ما يناسب مبتغاهم، والتصرف فيها بالزيادة والنقصان، والتلاعب ببعضها بالتحريف والاختلاق، ما يخدمُ أهدافهم، ويُصدّقُ مسلّماتهم التي وضعوها بداية، وانطلقوا يبحثون لها عن المثال، ويجلبون لها ما يسوّغها من النصوص والأخبار.

من معدن هذا التزوير المُنكر صاغ أدونيس ما أسمّيه "مُسَلَّمَتَه الحدَاثيَّة"، التي ترى أن الإلحاد، في تاريخنا العربي الإسلامي، كان "أول شكل للحداثة"[3]. وقد بنى على هذه المسلمة أن جميع كبار شعراء العربية، كبشار بن برد، وأبي نواس، وأبي تمام، والمتنبي، وأبي العلاء المعري، لم يكونوا مؤمنين بالوحي، بل-في زعمه-كان لهم وحيهم الخاص[4]، و"أن جميع العباقرة العرب الذين

---

[3] الثابت والمتحول(الأصول)، ص90

[4] من استجواب معه نُشر في الملحق الأدبي لجريدة "لوفيجارو Le Figaro" الفرنسية بتاريخ 16 ديسمبر 2004، ص4. وانظر أيضا كتاب "نظرة أورفي"،(بالفرنسية، ط1،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نبغوا في الإسلام، من أبي نواس إلى المعري، وجميعَ كبار الشعراء والفلاسفة، كانوا لادينيّين. ولم تَخرُجْ من الدّين مباشرةً ولا فكرةٌ واحدةٌ، مثلما يخرج العطرُ من الوردة. فالمفكرون والشعراءُ خلقُوا ورودا جديدة للحصول على عطر آخر"[5]، وأن "الشعر، على طول تاريخه، كان معاديا للدين"[6].

والغالب على هذا التزويرُ الحداثيّ ركوبُ مركب التنَكّر والتمويه والمغالطة أسلوبا في المجادلة والحجاج، من أجل الغلبة والإقناع، فضلا عن الخلفية الإديولوجية اللادينية التي لا تغيب. بل إن هذا التزوير كان يظهر، في بعض الأحيان، في صورة في غاية الوقاحة والدناءة والافتراء، وهو ما ينبهنا إلى هذا الحضيض الذي بلغه الحداثيون اللادينيون المتطرفون المزورون في الجراءة على مقدسات الإسلام، وثوابت التاريخ، وحقائق العلوم، ونزاهة العلماء.

فالشعر المُحدَث بمنظار هذا التزوير الحداثي هو الرحم الشرعي الذي فيه تخلّق الشعر الحديث. كيف؟ وبأي حجة أو مقياس أو مسوّغ يقرر الحداثيون هذا؟

ليس هناك من حجة ولا مقياس ولا مسوغ علمي يقبله المنطق وتسلم به العقول إلا الهوى الجارف والإديولوجية العمياء.

فالشعر المُحدَث، كما سنبين في هذا البحث، وخاصة في الفصل الثاني منه، كان يجري في حقيقته على أصول الشعر العربي

2009)، وهو عبارة عن حوارات أجرتها الباحثة حورية عبد الواحد مع أدونيس، ص150.

[5] من كتاب "محادثات مع أدونيس أبي"، لنينار إسبر ابنة أدونيس(الطبعة الفرنسية الأصلية)، ص146-147.

[6] "نظرة أورفي"، 151.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السليقي، ولم نر من الشعراء الذين وُصفوا بالمحدَثين أيَّ تطاول، أو إنكار، أو إسقاط، أو تشكيك، أو تجريح، أو استهزاء بهذه الأصول، كما هو حاصل اليوم مع "الشعراء" الحداثيين، ومن يجاريهم من النقاد، تجاه أصول الشعر العربي.

لم يُسقط الشعراء المحدثون ركنَ الوزن في الشعر، ولا أنكروا أساسَ البيت، تاما أو مجزوءا أو مشطورا، في بناء القصيدة، ولا استهانوا بالمُخاطب المتلقي بقذفه بعبارات هي لغو في لغو، على أنها "إبداع شعري"، ولا جاهروا، في أشعارهم، بالإلحاد وتناولوا مقدسات الإسلام بالجحود والتجريح.

لقد بلغ البهتان الحداثي أوْجَهُ حينما تمّ وصفُ شعراء محدثين مسلمين، كأبي نواس وأبي العلاء، مثلا، بأنهم كانوا مُلحدين. وهذا البهتانُ إنما يفضحه أن أشعار هؤلاء الشعراء، وما وصلنا من أخبارهم الموثوق بها، وليس الأخبار الموضوعة المدسوسة، تشهد بإيمانهم، رغم ما اشتهر عن بعضهم من خلاعة ومجانة وسخافة. أما مطويات ضمائرهم، وسرائر قلوبهم، فأمرها إلى الله، سبحانه، الذي (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور).

فليس بين الشعر المحدث، الذي تحدث عنه نقادنا القدماء، وبين "الشعر" الحداثي الذي يجتاح حياتنا اليوم، في اعتقادي، أي علاقة قرابة، وإنما هو التزوير الحداثي الذي فرض أن هناك علاقة "عائلية" "فنية" "إبداعية" عريقة بين الاثنين. وقد لا نستغرب هذا السلوك المنكر من "لقيط" ناتج عن حرام، يريد أن يثبت لنفسه نسبا شرعيا، وهو يعلم حق العلم أنه مولود غير شرعي. إذن، سيجتهد في فعل كل شيء، بالحق والباطل، من أجل أن يدفع عنه التهمة والنظرات المريبة التي لا تني تلاحقه.

إني أرى فصولَ هذا البحث خطوة جديدة في الطريق، أتمنى أن تتبعها خطوات وخطوات، من أجل فضح هذا التزوير الحداثي الذي بات يخنق حياتنا الأدبية، ومن أجل تحطيم أصنام النقد الحداثي اللاديني المتطرف، التي بات لها سطوة على العقول والقلوب

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والأذواق، في المدارس والجامعات، وفي مراكز التأطير والبحث، وفي غير أولئك في مناحي حياتنا، وبالخصوص في مضمار الفكر والثقافة والفنون والآداب.

ومن الله، تعالى، العون والتيسير والتوفيق.

مراكش: ربيع الثاني **1436**/يناير **2015**

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الأول

في اللغة والاصطلاح

في الاصطلاح اللغوي

"المُحْدَثُ"، في اللغة، صفةٌ على صيغة اسم المفعول من الإحداث، بمعنى الإيجاد والصنع والإبداع والاختراع، وكذلك "الحديث" على صيغة فعيل، بمعنى مفعول. جاء في لسان العرب: "والحدوث نقيض القُدْمَة. حدَث الشيء يحدُثُ حدوثا وحدَاثة، وأحدَثه هو، فهو محدَثٌ وحديث، وكذلك استحدثه...والحدوث: كونُ شيء لم يكن. وأحدثه الله فحَدَثَ. وحَدَثَ أمر أي وقع."(لسان العرب، مادة(حدث))

والحديث أو المُحدَث، في الزمان، يناقض القديم. وفي اللغة، "لا يقال حَدُث، بالضم، إلا مع قَدُمَ، كأنه إتباع، ومثله كثير."(نفسه) "وفي حديث ابن مسعود، رضي الله عنه، "أنه سلّم عليه، وهو يصلي، فلم يرد عليه السلام، قال: فأخذني ما قَدُم وما حَدُث"، يعني همومه وأفكاره القديمة والحديثة."[7]

وفي تاج العروس للزبيدي، مادة(حدث): "...يُقَال: حَدَثَ الشَّيْءُ، فإذا قُرِنَ بقَدُمَ ضُمَّ، للازْدِوَاج". وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي، في مادة(قدم): "وقَدُمَ، كَكَرُمَ، قَدَامَةً وقِدَماً، كعِنَبٍ: تَقادَمَ، فهو قَديمٌ وقُدامٌ، كغُرابٍ".

---

[7] النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، المجلد الأول، ص351.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشيء المُحْدث هو المبتدع على غير مثال سابق، واللفظ يعم الأشياءَ المحمودة والمذمومة على السواء. تقول في اللغة: "بَدَع الشيء يبدَعُه بدْعا وابتدعه: أنشأه وبدأه...والبِدْعُ: الشيء الذي يكون أوّلا...والبديع: المبتدِع والمبتدَع [بصيغتي الفاعل والمفعول]"(اللسان، مادة(بدع)). وقال الكسائي: "البِدْعُ في الخير والشر."(نفسه) وقال ابن حجر العسقلاني عند شرح قوله، صلى الله عليه وسلم: "وشر الأمور محدثاتُها" أن كل شيء أُحدث على غير مثال يُسمّى، في اللغة، "بِدْعة"، سواء كان محمودا أو مذموما."[8]

والكلمة المُحدَثة، في اصطلاح أهل اللغة، هي الكلمة المُوَلَّدَة، التي تقابل الكلمةَ العربية. "وفي مختصر العين للزبيدي: المُولَّد من الكلام المُحدث."[9] "وفي ديوان الأدب للفارابي، يقال: هذه عربيةٌ وهذه مُوَلَّدة..."(نفسه). وفي لسان العرب، مادة(ولد): "...وعربية مُوَلَّدة، ورجلٌ مُوَلَّد إذا كان عربيا غير محض...وإن سمي المولد من الكلام مولدا إذا استحدثوه ولم يكن من كلامهم فيما مضى...وجاءنا ببيِّنَة مُوَلَّدَة: ليست بمحقَّقَة...والمُوَلَّد: المُحْدَث من كل شيء...".

في الاصطلاح الشرعي

الإحداثُ في الدين، في الاصطلاح الفقهي الشرعي، هو اقترافُ الأمر المنكر الذي لا يشهد له أصل من الأصول المعتبرة، ولا حكمٌ من الأحكام الشرعية. قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: مَن أحدَثَ في أمرِنا هذا ما ليس فيه فهو ردٌّ."[10] قال ابن حجر

---

[8] فتح الباري: 13/267،266.

[9] المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للإمام السيوطي، الجزء الأول، ص304.

[10] رواه البخاري ومسلم. ولهذا الحديث رواية أخرى بلفظ: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ."

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في فتحه على شرح البخاري: "وهذا الحديث معدود مِن أصول الإسلام وقاعدة من قواعده. فإن معناه: مَن اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه."[11]

وفي الحديث أن ممّا كان يقوله، صلى الله عليه وسلم، في خطبه: "...إن أصدق الحديث كتابُ الله، وأحسن الهدي هديُ محمد، وشرّ الأمور مُحدَثاتها، وكلّ مُحْدَثة بدعة..."[12].

ويكاد يكون هناك إجماع بين العلماء الذين تناولوا هذا الحديث بالفقه والتفسير أن المقصود بالمُحْدَثَة-وجمعها مُحْدَثات-هو "ما أُحْدث وليس له أصلٌ في الشرع، ويُسمّى في عرف الشرع بِدْعة. وما كان له أصلٌ يدل عليه الشرع فليس ببدعة."[13]

وقال الإمام الشافعي، فيما أخرجه البيهقي في مناقبه: "المحدثات ضربان: ما أُحدث يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا، فهذه بدعة الضلال، وما أُحدث مِن الخير لا يخالف شيئا من ذلك، فهذه مُحدَثة غيرُ مذمومة."[14]

"وقال الحافظ ابن العربي الأندلسي في شرحه على سنن الترمذي في شرحه قولَه، صلى الله عليه وسلم: "إياكم ومُحْدَثات الأمور"[15] - قال: "اعلموا علّمكم الله أن المُحدَث على قسمين:

---

[11] فتح الباري: 357/5.

[12] من حديث رواه الإمام أحمد، والنسائي، وأبو داود، وابن ماجة، والدارمي، وغيرهم، مع اختلاف طفيف في بعض الألفاظ.

[13] فتح الباري: 266/13. راجع، أيضا، "لسان العرب": مادة(حدث)، و"النهاية في غريب الحديث والأثر": 351/1.

[14] عن المصدر السابق: 267/13.

[15] من حديث رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن العرباض بن سارية. وفيه يقول، صلى الله عليه وسلم، بلفظ رواية أبي داود: "فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مُحدَث ليس له أصل إلا الشهوة والعمل بمقتضى الإرادة، فهذا باطل قطعا-يعني هو المراد ببدعة الضلالة- ومُحدَث يحمل النظير على النظير، فهذه سنة الخلفاء والأئمة الفضلاء، يعني فليس المراد به بدعة الضلالة. قال: وليس المُحدَث والبدعةُ مذمومين للَفظ محدث وبدعة ولا لمعناهما، فقد قال الله، تعالى "وما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحْدَث"[16]، وقال عمر: نعمت البدعة. وإنما يُذَمّ من البدعة ما خالف السنةَ، ويُذم من المُحدَثات ما دعا إلى ضلالة."[17]

وقال الإمام المُحَدِّث الفقيهُ سلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (توفي سنة **660**هـ)، عن البدعة: "البدعةُ فعلُ ما لم يعهد في عصر رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وهي منقسمة إلى: بدعةٍ واجبة، وبدعة محرمة، وبدعة مندوبة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة. والطريق في معرفة ذلك أن تُعرض البدعة على قواعد الشريعة، فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة، وإن دخلت في قواعد التحريم فهي محرمة، وإن دخلت في قواعد المندوب فهي مندوبة، وإن دخلت في قواعد المكروه فهي مكروهة، وإن دخلت في قواعد المباح فهي مباحة..."[18].

اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة".

[16] من الآية الثانية من سورة الأنبياء. وتتمة الآية: "إلا استمعوه وهم يلعبون".

[17] عن كتاب "السنة والبدعة"، لعبد الله محفوظ محمد الحدّاد باعلوي الحضرمي، ص200.

[18] قواعد الأحكام في مصالح الأنام، الجزء الثاني، ص204. قارن بما جاء في "تهذيب الأسماء واللغات"، للإمام الحافظ أبي زكرياء محيي الدين بن شرف النووي(توفي سنة676): 22/3، وفي "شرح صحيح مسلم"، للإمام النووي نفسه: 154،155/6.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وزُبدة فقهِ المُحدثات في الشرع، كما نستخلصها من مقالات العلماء المحققين من أهل الاختصاص، أن المُحْدَثة نوعان: حسنة ممدوحة إذا وافقت أصول الشرع، وقبيحةٌ مذمومة إذا خالفت هذه الأصول. ومثال المحدثة الممدوحة صلاةُ التراويح في رمضان جماعةً، لقول عمر، رضي الله عنه، فيها: نعمت البدعة هذه"[19].

وعلى أساس هذا الفقه نفهم أن لفظ العموم في قوله، صلى الله عليه وسلم: "وكل مُحدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة" إنما أريد به الخصوص. والشواهدُ على إرادة الخصوص بلفظ العموم، في لغة العرب، أكثر من أن تحصى[20].

ويؤكد هذا الفهمَ قولُ الرسول، صلى الله عليه وسلم: "مَن سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرُها وأجرُ من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئةً كان عليه وزرُها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيء"[21]، وقولُه، صلى الله عليه وسلم، من حديث سابق: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين".

في الاصطلاح الأدبي

أما الإحداث في الاصطلاح النقدي الأدبي، فهو وصفٌ لشعر المولّدين من الشعراء، و"إنما سُمّوا بذلك لحدوثهم وقرب زمانهم، وهو مجاز"[22]. وقال الجاحظ: "إن الفرق بين المُولَّد والأعرابي أن

---

[19] من حديث في صحيح البخاري وموطأ الإمام مالك. وفي لفظ رواية صحيح البخاري: "نعم البدعة هذه".

[20] اقرأ بعض الأمثلة على ذلك في كتاب "السنة والبدعة"، ص16،17)

[21] رواه مسلم والنسائي والإمام أحمد، والرواية المثبتة في النص لمسلم.

[22] تاج العروس، للشيخ مرتضى الزبيدي: مادة(حدث). قارن بِـ"لسان العرب": مادة(حدث).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المُولَّد يقول، بنشاطه وجمعِ باله، الأبياتَ اللاحقةَ بأشعار أهل البدو، فإذا أمعن انحلت قوّتُه، واضطرب كلامُه"[23].

وقد شاع في كتابات القدامى مقابلةُ الشعر المحدث بالشعر القديم، والمحدَثين من الشعراء بالقدماء. وعند بعض النقاد لا تكاد تُذكر لفظة محدَثين إلا مقرونة بالقدماء، كما في نقد الشعر، مثلا، لقدامة بن جعفر، في سياق حديثه عن وجود الترصيع "في أشعار القدماء المجيدين من الفحول وغيرهم، وفي أشعار المحدَثين المحسنين منهم..."[24]، وقوله، في سياق حديثه عن عذوبة حروف القوافي وسلاسة مخارجها: "إن الفحول والمجيدين من الشعراء القدماء والمحدَثين يتوخون ذلك، ولا يكادون يعدلون عنه."[25]

ونظرا لتواصل الأجيال الأدبية، وتداخل طبقات الشعراء، وانصهار المواهب الفنية والشعرية في بوتقة حركة اجتماعية دائبة غير منقطعة، فإنه يصعب التعرفُ على البداية الحقيقية للشعر المحدَث. ومع ذلك، فإن المصادر القديمة تكاد تتفق على أن عصر المحدَثين قد بدأ ببشار بن برد[26]، الذي وصفه بعضُهم بأنه "أستاذ

---

[23] الحيوان: 132/3.

[24] نقد الشعر، ص80.

[25] نفسه، ص86. راجع حول اصطلاحات "محدث" و"محدثون" و"الحديث"، واصطلاحات "قديم" و"قدماء" و"قدامى" و"متقدمون" و"تقدم" كتاب "المصطلح النقدي في "نقد الشعر""، للدكتور إدريس الناقوري، ص129-132، وص405-409.

[26] كانت وفاته، حسب بعض المصادر سنة 167هـ. وقد راج في سبب قتله عدة أقوال، منها أن قتله كان بسبب الزندقة. وقد رجّح ابن المعتز، في طبقاته، أن المهدي قتله بهجوه يعقوب بن داود وزيره بقوله:

بني أمية هبّوا طال نومكـــــــــــمُ إن الخليفة يعقوبُ بن زيّـاد

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المحدَثين الذي عنه أخذوا، ومن بحره اغترفوا، وأثرَه اقتفوا..."[27]. وقد جعله الأصمعيُّ أشعرَ من مروان بن أبي حفصة (توفي سنة **182**هـ)، وعللَ حكمَه بأن "بشارا سلك طريقا لم يسلكه أحدٌ فانفرد به، وأحسن فيه؛ وهو أكثر فنون شعر، وأقوى على التصرف، وأغزر وأكثر بديعا، ومروان آخذٌ بمسالك الأوائل."[28] وقال عنه ابن المعتز: "هو أستاذ المحدَثين وسيدُهم، ومَن لا يقدم عليه، ولا يجارى في ميدانه."[29]

وقد صنف بعض القدامى الشعراءَ إلى طبقات، وجعلَ المحدَثين في المرتبة الرابعة، قال ابن رشيق: "طبقات الشعراء أربع: جاهلي قديم، ومُخَضْرَم، وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام، وإسلامي، ومُحدَث. ثم صار المحدثون طبقات: أولى وثانية على التدريج، وهكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا[30]"[31].

ويلاحظ على هذا التصنيف أنه، في ظاهره على الأقل، ترتيب زمني لا يشي بأي حكم مسبق لطبقة على طبقة. وإن كان هناك مِن حكم مسبق، فلعله في العبارات الاصطلاحية التي أصبحت تميز

ضاعت خلافتكم، يا قومُ، فالتمسوا خليفةَ الله بين الرّق والعود".

(طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص24،25.)

[27] الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، لأبي عبد الله محمد بن عمران المرزباني، ص290.

[28] نفسه، ص292. قارن بِـ"الأغاني"، لأبي الفرج الأصفهاني: 147/3.

[29] طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص24.

[30] ولد ابن رشيق(أبو على الحسن) سنة 390هـ، وتوفي سنة 456 على أرجح الأقوال.

[31] العمدة: 113/1.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أهلَ كل طبقة، وخاصة عبارة جاهلي أو قديم، وعبارة محدَث أو مولد.

وقد شاع في كثير من مقالات القدامى، وخاصة مقالات الرواة وعلماء اللغة، استعمالُ لفظة/اصطلاح محدَث ومولّد في سياقات تُشعر، بل تؤكد بالعبارة الصريحة، في بعض الأحيان، أن الأمر يتعلق بشيء هجين أو ناقص، بالمقارنة إلى القديم الأصيل التام.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثاني

الشعر المُحدَث والشعراء المُحدَثون بين علماء اللغة ونقاد الشعر

(1)

لقد تمخضت قضية الشعر المحدث، في تاريخ الشعر العربي، عن بروز اتجاهين أو تيارين اثنين: تيار علماء اللغة، وتيار نقاد الشعر[32].

وقد امتاز أصحاب التيار الأول بالتعصب للقديم على المُحدَث، وغالَوْا أيّما مغالاة حتى تجاوزوا رزانة الحِجاج المعقول وعانقوا عبثَ العناد واللامعقول.

ومن الحكايات التي روتها المصادرُ القديمة على هذا التعصب الأعمى والإفراط في العناد ما حدّث به أبو عمرو بن أبي الحسن الطوسي، قال: "وجّه بي أبي إلى ابن الأعرابي، لأقرأ عليه أشعارا،

---

[32] تَنعَتُ بعضُ المصادر أصحابَ التيار الأول بالرواة وأهل اللغة، وأصحابَ التيار الثاني بعلماء الشعر. وهي عبارات ترجع كلها، عند التأمل والتحقيق، إلى التمييز بين عِلمين اثنين: علم يدور على اللغة وفقهها متنا وصرفا ونحوا، وعلم يدور على الشعر وفنونه ولوازم صناعته وأدوات نقده. فالمشتغلون بالعلم الأول هم علماء اللغة، والمشتغلون بالعلم الثاني هم علماء الشعر. وإن حصل البيان والتمييز فلا مشاحة، بعدئذ، في العبارات والنعوت.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وكنت معجبا بشعر أبي تمام، فقرأت عليه من أشعار هذيل، ثم قرأت أرجوزة أبي تمام على أنها لبعض شعراء هُذيل:

وعاذل عذَلته في عدله فظن أني جاهل من جهْله

"حتى أتممتها، فقال: اكتب لي هذه، فكتبتها له، ثم قلت: أحسنة هي؟ قال : ما سمعت بأحسن منها! قلت: إنها لأبي تمام، فقال: خرّقْ خرّقْ !"[33]

"وحكي أن ابن الأعرابي قال، وقد أنشد شعرا لأبي تمام: إن كان هذا شعرا فما قالته العرب باطلٌ."[34]

وروي "أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنشد الأصمعي:

هل إلى نظرة إليك سبيـــلُ فيُروَّى الصّدَى ويُشفى الغليلُ

إن ما قلّ منك يكثُر عنـــدي وكثيرٌ ممن تحبّ القليـــــــلُ

[33] أخبار أبي تمام، لأبي بكر الصولي، ص175،176. والتخريق: التمزيق. وابن الأعرابي هو أبو عبد الله محمد بن زياد، من علماء اللغة المشهورين في القرن الثاني والثلث الأول من القرن الثالث. ولد سنة 150هـ، وتوفي سنة231 هـ، على اختلاف بين= =الروايات في هذه السنوات. قال فيه ثعلب: "...انتهى إليه علم اللغة والحفظ"(سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي: 688/10). "وكانت طريقته طريقة الفقهاء والعلماء، وكان أحفظ الناس للغات والأيام والأنساب"(معجم الأدباء، لياقوت الحموي: 190/18).

[34] نفسه، ص245.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

"فقال الأصمعي: لمن تنشدني؟ فقال: لبعض الأعراب، فقال: هذا، والله، هو الدّيباجُ الخُسْرواني[35]، قال: إنهما لليلتهما، فقال: لا جرم، والله، إن أثر الصنعة والتكلف بيّن عليهما."[36]

وحكى الأصمعي أنه حضر مأدبةً مع خلف الأحمر (أبي مُحْرز) وابن مناذر، فقال ابن مناذر لخلف: "يا أبا محرز، إن يكن امرؤ القيس والنابغة وزهير ماتوا، فهذه أشعارهم مخلّدة، فقس شعري إلى شعرهم. قال: فأخذ صَحْفَةً مملوءة مرقا فرمى بها عليه."[37]

---

[35] (الديباج الخسرواني) هنا كناية عن النفاسة والشرف و علو القيمة.

[36] الموازنة، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي(ت370)، ص24. والأصمعي هو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب، "أحد أئمة اللغة والغريب والأخبار والملح والنوادر...وكان من أهل السنة، ولا يفتي إلا فيما أجمع عليه علماء اللغة، ويقف عما ينفردون عنه، ولا يجيز إلا أفصح اللغات"(بغية الوعاة، للحافظ السيوطي: 112/2). من كتبه: غريب القرآن، خلق الفرس، الإبل، الخيل، الشاء، الميسر والقداح، الأمثال، كتاب الأضداد، كتاب الألفاظ، كتاب السلاح، كتاب النوادر..."(نفسه: 113/2)،وهي كتب مبنية، كما تنبئ عناوينها، على الاطلاع اللغوي الواسع، ورواية الأخبار والأشعار. توفي الأصمعي سنة215هـ

[37] الموشح، ص335. خلف بن حيّان المشهور بخلف الأحمر(أبو مُحرز) "هو أحد رواة الغريب واللغة والشعر ونقّاده والعلماء به وبقائليه وصناعته، وله صنعة فيه. وهو أحد الشعراء المحسنين، ليس في رواة الشعر أحد أشعر منه."(إنباه الرواة على أنباه النحاة، للوزير القفطي: 383/1). "كان الأخفش يقول: لم أدرك أحدا أعلم بالشعر من خلف الأحمر والأصمعي."(بغية الوعاة: 554/1). "قيل: هو معلم الأصمعي، وهو

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذه أمثلة من حكايات تعصبهم الأعمى على المُحدَث، حيث الإفراط البيّن الذي لا يحتاج إلى تعليق.

وهناك مقالات أخرى لعلماء اللغة لا تصل إلى مستوى التعصب الذي قرأناه في الروايات السابقة، لكنها مقالات صريحة في بيان تقديمهم القديمَ على الحديث، وإن اعترف بعضُهم بحسن هذا الحديث. فقد حدّث "أبو عبد الله التميمي، قال: كنا عند ابن الأعرابي، فأنشده رجل شعرا لأبي نواس أحسن فيه، فسكت. فقال له رجل: أما هذا مِن أحسن الشعر؟ قال: فقال: بلى، ولكن القديمَ أحبُّ إلي."[38]

و"عن أحمد بن عبيد بن ناصح، قال: سمعت ابن الأعرابي يقول: إنما أشعار هؤلاء المُحدَثين-مثل أبي نواس و غيره-مثلُ الريحان يُشَمّ يوما ويذوي فيُرمَى به؛ وأشعار القدماء مثلُ المسك والعنبر، كلما حركته ازداد طيبا."(نفسه) ومرمى هذا الوصف التشبيهي أن رونق الشعر المحدث محدود في الزمان، على عكس ديباجة القديم، فهي جديدة على مر الأيام والعصور.

ومن قبيل هذا التعصب، مع الاعتراف بحسن الحديث، قولُ أبي عمرو بن العلاء[39] مرة: "لقد كثر هذا المحدثُ وحَسُن حتى هممت أن آمر فتياننا بروايته."[40] وفي رواية ابن رشيق "المُولَّد"

والأصمعي فتقا المعاني، وأوضحا المذاهب، وبينا المعالم."(نفسه). توفي خلف الأحمر سنة180هـ.

[38] الموشح، ص286.

[39] أبو عمرو بن العلاء هو شيخ المدرسة البصرية، وأحد القراء السبعة. ذكر مترجموه أنه كان إماما في اللغة والغريب والنحو والشعر والأخبار. توفي سنة155هـ.

[40] البيان والتبيين، للجاحظ: 321/1، والعمدة، لابن رشيق: 90/1، والشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص19.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بدلَ "المُحدَث". وعلق ابن رشيق على قول أبي عمرو بقوله: "فجعله مولّدا بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمُخضْرَمين، وكان لا يَعُدّ الشعر إلا ما كان للمتقدمين."[41]

وهناك من هؤلاء الرواة وعلماء اللغة مَن كانت له خبرة وعلم بصناعة الشعر، فضلا عن كثرة الحفظ. فقد سُمع الأصمعي يقول: "أحفظ ستَّ عشرةَ ألف أرجوزة"[42]. "قال المبرد:...كان الأصمعي بحرا في اللغة لا يُعرف مثله فيها وفي كثرة الرواية..."[43]

وقال أبو علي القالي عن خلف الأحمر: "كان أبو مُحرز أعلمَ الناس بالشعر واللغة، وأشعر الناس على مذاهب العرب."[44]

ويُروى عن خلف أنه "كان أقدرَ الناس على قافية"(نفسه). وبسبب ثقافته الشعرية الواسعة والقوية فقد استطاع أن يصنع أشعارا كثيرة وينحلها غيرَه من الشعراء المتقدمين، من غير أن يظهر عليها سماتُ المحدَثين. وقد رُوي "أن القصيدة المنسوبة إلى الشَّنفرَى التي أولها:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكـم لأميلُ

"له، وهي من المُقدَّمات في الحسن والفصاحة والطول."(نفسه)

ومن العلماء الذين شهدوا لخلف الأحمر بالعلم بالشعر محمد بن سلام الجمحي، حيث حكى إجماعَ أصحابه على "أنه[أي خلف

---

41 العمدة: 90/1.

42 بغية الوعاة: 112/2- إنباه الرواة: 198/2.

43 إنباه الرواة: 201/2.

44 الأمالي: 156/1.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأحمر] كان أفرسَ الناس ببيت شعر وأصدقَه لسانا، كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبرا أو أنشَدَنا شعرا أن لا نسمعَه مِنْ صاحبه."[45]

وفي سياق تبيان أن الشعر صناعة وثقافة لها أهلُها من العلماء كسائر العلوم والصناعات، حكى ابنُ سلام أن قائلا قال لخلف: "إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنتُه فما أبالي ما قلتَ فيه أنت وأصحابُك، فقال له: إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته فقال لك الصّرّافُ إنه رديء، هل ينفعك استحسانُك له؟"[46]

ومع هذا العلمِ بالشعر وطولِ التمرّس بروايته وصناعته، الذي امتاز به خلفٌ والأصمعيُّ وغيرهما من رواة اللغة وعلمائها-وهم كثيرون- فإن هواهم الراسخَ للقديم-وقد "كان الشعرُ في الجاهلية هو ديوان علم العرب ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون- كما قال ابن سلام[47]- جعلَ موازين حكمهم تميل دائما له، لأن هذا القديمَ كان هو مادة محفوظاتهم وثقافتِهم وخبراتِهم وصنعتِهم وعلمِهم، ليس لهم مادةٌ غيره، أي كان هو مادة وجودهم العلمي.

ثم هناك ملاحظةٌ أخرى على هذا المنحى التعصبي الذي امتاز به غالبيةُ هؤلاء العلماء الرواة، وهي أنهم كانوا بمثابة أساسِ البناء في تاريخ علوم العربية بكل ألوانها وفنونها. فهم الرّواد الذين هيّأوا المادة الخام للعلوم التي تأسست فيما بعد، بما فيها العلم الذي تخصص أصحابُه في صناعة الشعر ونقده. وهذه الريادة كانت تعطيهم الحقَ، بشكل من الأشكال، ليتحدثوا، في آن واحد، بما هم أمناءُ على الذاكرة اللغوية العربية، وبما هم، أيضا، وحدهم أصحابُ العلم والخبرة بالمادة الأساس للسان العربي وهي الشعر القديم.

---

[45] من مقدمة طبقات الشعراء، ص33.

[46] نفسه، ص28.

[47] نفسه، ص34.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لكن الأمور تغيرت بعد جيل هذا الرعيل الأول من الرواد، وخاصة حينما تأسست العلوم، ودُونت اللغة والأشعار والأخبار والأيام، وامتاز مِن العلماء مَن تخصصوا في مجالات بعينها، وأفردوها بالكتابة والرواية والبحث، كمجال الشعر عموما، أو مجال شعر قبيلة بعينها، أو مجال اللغة بغريبها ونوادرها، وغير ذلك مِن مجالات التخصص.

ولا بد هنا من التنويه بدور هؤلاء العلماء الرواد، لأنهم هم الذين حفظوا لنا أصول السماع في اللسان العربي، إذ أنك تجد غالبيةَ أسانيد الروايات اللغوية والأدبية تنتهي إلى هؤلاء الرواد، أمثال أبي عمرو بن العلاء، والأصمعي، وخلف الأحمر، وابن الأعرابي، وأبي عمرو الشيباني، وأبي زيد الأنصاري. فعسى أن يشفع لهم هذا الدورُ الريادي التاريخي فيما كان منهم من تعصب للقديم ودفاع عنه مستميت.

(2)

حجج المتعصبين للقديم

ومن الحجج الواهية، إلى حد السخافة، التي بنى عليها أصحابُ القديم مواقفهم المتعصبة قولُهم بسبق الشعر القديم في الزمان، وسبقه، أيضا، إلى المعاني، مما لم يبق معه أيٌّ فضل للمُحدَثين.

وهاتان الحجتان، كما هو ظاهر، لا تصمدان أمام منطق التاريخ وتطور المجتمعات والأفكار واختلاف الحضارات، وكذلك اختلاف الرؤى والأذواق، فضلا عن خصوصية الإبداع الشعري، التي تجعله مرتبطا، أساسا، بنفس المبدع وإرادته وزمانه وملابساتِ واقعه وظروفه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومع ذلك، فقد تكلّف الأدباء ونقاد الشعر بتفنيد مثلِ هذه الحجج ودحض شبهاتها[48].

ولعل من أقدم الردود على القول بعلة التقدم في الزمان، في تفضيل القديم على المُحدَث، قولَ ابن قتيبة: "...ولم يقصر الله العلمَ والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصَّ به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعلَ كلَّ قديم حديثا في عصره، وكلَّ شَرَف خَارِجِيَّة[من يسود بنفسه مِن غير أن يكون له قدم] في أوله.

"فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالُهم يعدّون مُحدَثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثر هذا المُحدَثُ حتى لهممت بروايته، ثم صار هؤلاء قدماءَ عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون

---

[48] لقد حصر ابنُ سنان الخفاجي حجج المتعصبين للقديم على المحدَث في ثلاثة، منها الحجتان المذكورتان(السبق الزماني والسبق إلى المعاني)، والثالثة هي القول بأن الشعر القديم كان يصدر عن طبع لا تكلف فيه، والمحدَث طابعه التكلف والتعمّل، ومن ثَمّ كانت أشعار المتقدمين هي المعيار في معرفة العربي من المولَّد، والمرجعَ في إثبات الشاهد اللغوي.

وقد تولى ابن سنان الخفاجي الردَّ عليها بما أبان عن تهافتها وبعدها عن الصواب، ونَسب الاعتلالَ بالتقدم في الزمان إلى "طائفة من جهالهم".(سر الفصاحة، ص278-284) وقد ساق ابن سنان ردوده في هذا الموضوع في فصل عقده في آخر كتابه بعنوان "فصل في ذكر الأقوال الفاسدة في نقد الكلام".

وكذلك فعل أبو بكر الصولي في "أخبار أبي تمام"، حيث ذكر من أسباب طعن خصوم أبي تمام على شعره الجهلَ والتقليدَ والهَوَى الذي يصم ويعمي، والحسد.(اقرأ رسالته إلى أبي الليث مزاحم بن فاتك في مقدمة "أخبار أبي تمام، ص3 وما بعدها).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مَن بعدهم لمَنْ بعدنا، كالخريمي، والعتّابي، والحسن بن هانئ وأشباههم..."[49]

أما عِلّةُ السّبق إلى المعاني، فهي أيضا داحضة لا تقوم على أساس، ذلك أن الشأنَ في الإبداع مرجعُه إلى الشعراء أنفسهم، إلى طرائقهم في التعبير، والوصف، والتخييل والتصوير. فهناك معان كثيرة سبق الشعرُ القديم إلى تناولها، ومع ذلك نجدها قد اكتسبت جماليةً متميزة في بعض أشعار المُحدَثين حينما تناولوها بزيادةٍ ترجع إلى الذوق الإبداعي، والحس التصويري، والبراعة التخييلية.

فقد شاع عندهم استحسانُ قول النابغة معتذرا إلى النعمان:

فإنك كالليل الذي هو مدركـــي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

خطاطيفُ حُجْنٌ[50] في حبال متينة تمد بها أيدٍ إليك نـــــــوازعُ

ثم جاء سَلْم الخاسر، من شعراء الدولة العباسية(ت**186**هـ)، فعبر عن المعنى نفسه، ولكن بطريقة مختلفة في اللفظ والتصوير، فجاء عملُه لا يخلو من طابع الإبداع، وذلك من أبيات اعتذر فيها إلى المهديّ قائلا:

وأنت كالدهر مبثوثا حبائلُـــه والدهر لا ملجأٌ منه ولا هـربُ

ولو ملكت عنانَ الريح أصرفُه في كل ناحيةٍ ما فاتك الطلبُ[51].

ومن ذلك أن الناسَ قد أكثروا "ذكر الشَّيْب من قدماء الجاهلية والإسلام، فأجمع الحذاقُ بعلم الشعر وتمييز ألفاظه أنه لم يُقل فيه

---

[49] الشعر والشعراء، ص19. والظاهر أن ابن قتيبة، في المقدمة نفسها، قد نقض مقالته هاته، التي أنصف فيها الشعرَ المحدَث، بقوله: "وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام..."(الشعر والشعراء، ص28).

[50] حجن: معوّجة.

[51] أخبار أبي تمام، لأبي بكر الصولي، ص 19،20.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أحسن من قول منصور النّمري، ووقع الإجماع عليه، فما ضرّه تأخرُه إذ وقع الأجود له، وهو قوله:

ما تنقضي حسرةٌ مني ولا جــزعُ إذا ذكرت شبابا ليس يُـرتجـــــعُ
بان الشبـابُ وفاتني بشِرّتـــــــــــه صروفُ دهر وأيام لـها خُــــدع
ما كنت أعطي شبابي كنه غِرّتـــه حتى مضى فإذا الدنيا له تبــــع
إن كنتِ لم تطعمي ثُكْل الشباب ولم تشجَيْ بغصّته فالعذر لا يقــــع
أبكي شبابا سُلبناه وكــــــان ولا توفِي بقيمته الدّنيا وما تســـــعُ
ما واجه الشيْبَ من عيْنٍ وإن ومقَتْ إلا لها نبْوةٌ عنه ومُرتَـــــــــدعُ."[52]

"وقول عنترة "هل غادر الشعراء مِن مُتَرَدَّم"، يدل على أنه يَعدُّ نفسَه مُحدَثا قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناسُ منه ولم يغادروا له شيئا. وقد أتى في هذه القصيدة بما لم يسبقه إليه متقدم، ولا نازعه إياه متأخر."[53]

وقد وفّى أبو تمام بالمراد في هذا الموضوع بقوله:

---

[52] نفسه، ص28،27.
[53] العمدة: 91/1.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قَـرَتْ
حياضُك منه في العصور الذواهـب
ولكنهُ صوبُ العقول إذا انجلـــتْ
سحائبُ منه أُعقبت بسحائـــب."[54]

(3)

التعصب للقديم بسبب الحاجة إلى الشاهد اللغوي

ولعل الحجةَ التي فيها للمتعصبين للقديم مستمسكٌ، إلى حد ما-لأن التعصبَ أصلا لا مُسوغ له-هي حاجتهم إلى الشاهد اللغوي، وتحرّيهم في طلب العربية من أصولها الصافية، وهذا ما جعلهم يقسمون الشعراء قسمين: شعراء يوثق بعربيتهم وسماعهم، فهم حجة، وشعراء لا يوثق بعربيتهم وحفظهم، فهم مولّدون مُحدَثون.

وقد أشار ابن رشيق إلى أن تعصبهم للقديم كان، في مبتدئه، بسبب حاجتهم إلى الشاهد الشعري، لأنهم لم يكونوا يثقون فيما يأتي به المُولَّدون، لكن سرعان ما تحولت هذه الحاجة إلى لجاجة[55].

---

[54] ديوانه: 118/1. انظر كذلك "العمدة": 91/1. والبيتان من قصيدة مدح بها أبا دلف العجلي، ومطلعها:

على مثلها من أربع وملاعـب أُذيلت مصُونات الدّموع السواكب.

وقرت: جمعت، من قرى الماء في الحوض يقريه، إذا جمعه.

[55] العمدة/ 91/1.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد شاع في كثير من المصادر أن ابن هرمة[56] هو خاتمة الشعراء الذين يُحتج بشعرهم. ولعل مستندَهم في ذلك هو قول الأصمعي: "خُتم الشعر بابن هرمة"[57]. إلا أن هناك روايات أخرى تُبِين عن اختلافهم وترددهم في هذه المسألة[58]. فقد قال الأصمعي في رواية أخرى: "ساقة الشعراء [مِن ساقة الجيش أي مُؤخَّره]: ابن ميّادة وابن هرمة ورؤبة وحكم الخُضري(حي بن محارب) ومكين العذري..."[59]. وقال في رواية ثالثة: "خُتم الشعر بالرمّاح[60]"[61]. وقال في رواية رابعة: "بشار خاتمة الشعراء، ووالله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم."[62] وزعم أبو عمرو بن العلاء-في رواية خامسة- : "أن الشعر فُتح بامرئ القيس وخُتم بذي الرُّمة"[63].

ولقد تداخل المقياسان اللغوي والشعري في حيثيات حكمهم على الشعراء، وتقويم أشعارهم، وتحديد طبقاتهم. ولعل ذلك راجع إلى ما أشرنا إليه سابقا من كون العلماء الرواة إنما كانت مادةُ علمهم وروايتهم هي الشعر، عنها يصدرون وإليها يرجعون، فكان طبيعيا

---

[56] هو إبراهيم بن علي بن سلمة، من مخضرمي العصرين الأموي والعباسي، توفي سنة 176هـ.

[57] طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص20.

[58] راجع بعض التفصيلات في هذا الموضوع في كتاب "عصور الاحتجاج في النحو العربي"، للدكتور محمد إبراهيم عباده، ص193 وما بعدها.

[59] الشعر والشعراء، لابن قتيبة، في ترجمة ابن هرمة، ص507.

[60] هو الرمّاح بن أبرد بن ميادة، وميّادة أمه، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. مات في صدر خلافة المنصور.

[61] البيان والتبيين: 349/3.

[62] الأغاني: 143/3و150.

[63] البيان والتبيين: 84/4.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أن يتداخل المقياسان، وإن كان المقياس اللغوي عندهم هو الغالب، وعليه يعتمدون في إصدار أحكامهم.

فالمبرد (محمد بن يزيد)، مثلا، وإن كان ممّن أنصفوا الشعر المحدث بروايته واستحسانه والاستشهاد به، فإنه لم يستطع أن يتخلص نهائيا من أثر ثقافته اللغوية الغالبة، التي تميز بين شعر وشعر، لا بسبب شعرية هذا الشعر في ذاته-وإن كان ذلك حاضرا عندهم-وإنما بسبب الاحتجاج اللغوي. فقد أورد أبياتا لشاعر وقدّم لها بعبارة تفيد التحفظ، حيث ذكر أن الشاعر "وإن لم يكن بحجة، ولكنه أجاد فذَكَرنا شعرَه هذا لجودته ، لا للاحتجاج به..."[64].

وعلى الرغم من غلبة هذا الهم اللغوي عندهم، فإن أحكامهم كانت تختلف في شأن الشاعر الواحد، مما يدل على نسبية هذه الأحكام، وتعلقها بالانطباعات الشخصية، فضلا عن الذوق والثقافة اللغوية وحجم المحفوظات ومدى الاطلاع على الأخبار لدى العالم الراوية/الحاكم.

ومهما يكن مِن أمر المقاييس التي كانوا يعتمدونها في أحكامهم، وكذلك العناصر والمعطيات التي كانوا يعتبرونها في تصنيف طبقاتهم، فإن الغالب-إذا استثنينا المقالات الفاضحةَ المفرطة في التعصب والعناد- أن الشعر المُحدَث لم يكن عندهم مردودا لكونه شعرا، أي لم يكن مردودا بمقاييس إبداعية شعرية، وإنما كانوا يردونه، أساسا، بسبب طلبهم الحجة اللغوية، وولوعهم بالغريب والنوادر "...لأن الذين اختاروا الغريب، فإنما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم، وإظهار التقدم في معرفته، وعجز غيرهم عنه، ولم يكن قصدهم جيد الأشعار لشيء يرجع إليها في أنفسها."[65]

---

[64] الكامل: 9/1.

[65] إعجاز القرآن، للباقلاني، ص136،137.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولعل هذا ما قصده الجاحظ بقوله: "طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار، وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب، كالحسن بن وهب، ومحمد بن عبد الملك الزيات."[66]

وفيما يلي بعض الأمثلة.

"قال أبو حاتم: سألت الأصمعي عن القُحيْف العامري [شاعر أموي]، الذي قال في النساء، قال: ليس بفصيح ولا حجة.

"وسألته عن زياد الأعجم [شاعر أموي مشهور]، فقال: حجة لم يتعلق بلحن...

"قلت: فأخبرني عن عبد بني الحسحاس، قال: هو فصيح...

"قال: وأبو دلامة [مخضرم الدولتين الأموية والعباسية] عبد رأيته، مولد حبشي. قلت: أفصيحا كان؟ قال: هو صالح الفصاحة.

"قال: وأبو العطاء السندي [مخضرم الدولتين] عبد أخْربُ مشقوق الأذن. قلت: أو كان في الأعراب؟ قال: لا، ولكنه فصيح...

"...قال: وابن هرمة، فثبت فصيح.

"قال: وابن أذينة ثَبت في طبقة ابن هرمة، وهو دونه في الشعر..."[67].

وحدث أبو حاتم "قال: قلت للأصمعي: أتقول في التهدد: أبْرقَ وأرعد؟ فقال: لا، لست أقول ذلك إلا أن أرى البرق وأسمع الرعد. فقلت: فقد قال الكُميت:

أبْرقْ وأرعدْ يا يزيـــــــدُ فما وعيدك لي بضائر.

---

[66] العمدة: 105/2.

[67] فحولة الشعراء، لأبي حاتم السجستاني، ص122-124.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

"فقال: الكميت جُرْمُقاني[68] من أهل الموصل ليس بحجة، والحجة الذي يقول:

إذا جاوزت من ذات عرق ثنيةً فقل لأبي قابوسَ ما شئت فارْعُدِ"[69].

وقال الأصمعي: "الكميت بن زيد ليس بحجة، لأنه مولد، وكذلك الطّرماح...

"قال: وذو الرمة حجة، لأنه بدوي، ولكن ليس يشبه شعره شعر العرب..."[70].

وفي رواية أخرى، قال الأصمعي: "ليس الكميت بن زيد بحجة، لأن الكميت كان من أهل الكوفة، فتعلم الغريب وروى الشعر، وكان معلما، فلا يكون مثل أهل البدو..."[71].

وفي رواية أخرى، قال الأصمعي: "الكميت تعلم النحو، وليس بحجة، وكذلك الطرماح، وكانا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهمانه..."[72].

وحدّث الرياشي، قال: "سألت الأصمعي عن مروان بن أبي حفصة، فقال لي: كان مولدا، ولم يكن له علم باللغة."[73]

---

[68] أي أصله عجمي. في لسان العرب: "جرامقة الشام أنباطها، واحدهم جُرمُقاني، ومنه قول الأصمعي في الكُميت: هو جرمقاني(...) الجوهري: الجرامقة قوم بالموصل أصلهم من العجم."

[69] الأمالي، لأبي علي القالي: 96/1.

[70] فحولة الشعراء، لأبي حاتم السجستاني، ص132.

[71] الموشح، للمرزباني، ص227.

[72] نفسه.

[73] نفسه، ص291.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والملاحظ على العبارات التي تضمنت الاعتلالَ للأحكام الصادرة في حق الشعراء، في الأمثلة السابقة، أنها لا تخرج عن دائرة الاعتلال اللغوي العام، مع ما يلابس ذلك، في كثير من الأحيان، من انطباعات ذاتية وعوامل أخرى، قد لا يكون لها متعلقٌ بموضوع اللغة، كأن يحكم اللغويُّ للشاعر اتقاءَ لسانه، كما في قصة بشار مع الأخفش، حيث يُحكى أن بشارا بلغه أن الأخفشَ يطعن عليه من جانب لغته، فتوعده، لكن أصحابَ الأخفش تشفعوا لديه ليعدِل عن هجوه، فقبل الشفاعة، "فكان الأخفش، بعد ذلك، يحتج في كتبه بشعره ليبلغه ذلك فيكف عنه."[74]

ويروى أن بشارا هجا سيبويه لنفس السبب.[75]

فعبارات مثل: فلان ليس بفصيح، فلان ليس بحجة، فلان ليس له علم باللغة، فلان مولد حبشي، فلان صالح الفصاحة، فلان ثبت فصيح،...إلى آخر العبارات التعليلية/الحكمية التي أوردنا أمثلة منها في الروايات المتقدمة، إنما تدل على أن همّهم إنما كان في طلب الحجة اللغوية في البدوي/الأعرابي الفصيح، وليس في النظر إلى ذات الشعر بما هو صناعة وثقافة وتصوير وإبداع وتخييل.

وحتى مقياس الحجية اللغوية هذا قد يبدو غامضا من خلال بعض الروايات نظرا لغلبة الانطباعية الذاتية والثقافة الشخصية، كما أسلفت.

فالأصمعي، في رواية مثلا، يحكم على الكميت بأنه ليس بحجة بسبب كونه موَلَّدا، مطلقا[76]. وفي روايات أخرى يحكم لبعض الشعراء بأنهم حجة على الرغم من أنهم مُولَّدون، وهو ما يفهم منه أن المولد قد يكون حجة مرة، وقد لا يكون حجة مرة أخرى. كيف؟

---

[74] الموشح، ص287. قارن بِـ"الأغاني": 209/3.

[75] نفسه.

[76] فحولة الشعراء، لأبي حاتم السجستاني، ص132.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما السر في ذلك؟ هذا ما يصعب الوقوف عليه في صورة واضحة في الأخبار المروية في هذا الشـأن؛ قال الأصمعي: "وعمر بن أبي ربيعة مولد، وهو حجة. سمعت أبا عمرو بن العلاء يحتج في شعره ويقول: هو حجة.

"وفضالة بن شريك، وعبد الله بن الزبير الأسدي وابن الرقيات: هؤلاء مولدون، وشعرهم حجة..."[77].

وهذا ذو الرمة قد حكم له الأصمعي، في رواية، بأنه حجة، وعلل حكمه بأنه بدوي. لكن هذا الحكم لم يمنع الأصمعي، في رواية أخرى، أن يعترض على لغته. فقد روي أن الأصمعي ضعَّف اللغة التي تقول فيها العرب "فلانة زوجة فلان"، وذهب إلى أنهم يقولون في اللغة الفصيحة: "هي زوج فلان". فلما قيل له: "أليس قد قال ذو الرّمة:

إذا زوجة بالمصر أم ذا خصومة أراك لها بالبصرة العام ثاويـا[78]

"...قال: "إن ذا الرمة قد أكل البقل والمملوح في حوانيت البقاليين حتى بشم."[79] وهو يريد أن لسانه لم يعد بدويا قحا من كثرة التردد على الحواضر. والغريب هو أن الأصمعي "قد قُرئ عليه شعر ذي الرّمة فلم ينكره."[80] ويضيف الراوي: "وقد قرأنا عليه [أي على الأصمعي] قبل هذا لأفصح الناس فلم ينكره:

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والطامعون إليّ ثم تصدعـوا

---

[77] نفسه، ص124.

[78] قد ورد هذا البيت، في رواية أخرى، بلفظ: "أذو زوجة في المصر أم لخصومة" و"أم ذو خصومة"، وكلها مستقيم في الوزن.

[79] الموشح، ص214.

[80] مجالس العلماء، لأبي القاسم الزجاجي، ص150.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

"وقال آخر:

من منزلي قد أخرجتني زوجتي تَهِرُّ في وجهي هريرَ الكلبةِ."[81]

ثم علق الراوي في الأخير بأن الأمر لا يعدو أن يكون تعصبا من الأصمعي للأفصح على الفصيح، وهو إنما لجّ "لأنه كان مولعا بأجود اللغات، ويرد ما ليس بالقوي..."[82].

(4)

استحسان الشعر المحدث في ذاته

ومما يؤكد أن موقفهم من الشعر المُحدَث وحكمَهم على أصحابه إنما كان بسبب حرصهم على الحجة اللغوية، وليس بسبب مقاييس فنية قائمة في ذات الشعر، أن روايات كثيرة-وقد أوردنا بعضها سابقا- قد حملت لنا، بعبارات متنوعة، استحسانَهم للشعر المُحدَث، وطربَهم لتصويراته، وتعاطفَهم مع الشعراء المُحدَثين. وقد أصبح هذا التعاطف والاستحسان، فيما بعد، مذهبا مشهورا عند الأدباء والنقاد، واختيارا سائرا بين عامة الناس.

ومن أمثلة ذلك قولُ الأصمعي عن رواة الكوفة إنهم "خَتموا الشعراء بمروان بن أبي حفصة، ولو ختموهم ببشار كان أخلق..."[83]. وهذي العبارةُ شهادة من الأصمعي لبشار على تقدم طبقته وعلو مكانته الشعرية.

---

81 نفسه.

82 نفسه. يراجع هذا المصدر(مجالس العلماء) للمزيد من أخبار الأعراب الرواة، ومناقشات اللغويين والنحويين والشعراء.

83 الموشح، ص292. قارن بِـ"الأغاني": 148/3.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن ذلك أن أبا حاتم السجستاني أُنشد "شعرا لأبي تمام فاستحسن بعضَه واستقبح بعضا، وجعلَ الذي يقرأ عليه يسأله عن معانيه فلا يعرفها أبو حاتم؛ فلما فرغ قال :ما أُشبّه شعرَ هذا الرجل إلا بخُلْقان له روعة وليس له مُفتَّش."[84]

فهذه الرواية تظهر بجلاء تعصب العلماء الرواة على المُحدَث مطلقا، وفي الوقت نفسه تُظهر استحسانَهم له بما هو شعر، أي فنٌّ وإبداع، وهم الخبراءُ بأن الشعر هو أكبر من أن يُحصرَ في تركيبه اللفظي ومعجمه اللغوي، وذلك بما اكتسبوه مِن ذوق وإحساس وقدرة على التمييز، بسعة اطلاعهم وكثرة محفوظهم وتنوع رواياتهم.

خاتمة الفصل

ونخلص مما قدمناه في فقرات هذا الفصل إلى أنه، مهما قيل في الحيف الذي لحق الشعرَ المُحدَث من جراء مواقف العلماء الرواة وأحكامِهم المتعصبة المنتصرة للقديم، فإن هذا الحيف والتعصبَ لم يَنْشِب أن رجعَ، مع الأيام، إلى الاعتدال والإنصاف، فكثرت المواقفُ والكتابات، التي وفّت الشعر المُحدَثَ والشعراء المُحدَثين حقَّهم وزيادة، حتى ظهر في الأدباء والنقاد من غلب عليه، إلى حد التخصص، الدفاعُ عن الشعر المحدث، وبيانُ جودته وجدارته، ومخاصمةُ معارضيه، والردُّ على دعاويهم وشبهاتهم، ونقضُ حججهم، إلى درجة تجاوز معها بعضُهم حدودَ القصد والاعتدال والإنصاف. ولعل أبا بكر الصولي واحدٌ من أشهر هؤلاء الأدباء النقاد الذين أفردوا جزءا مهما من تصانيفهم للدفاع عن

---

[84] الموشح، ص343. الخُلقان من الشيء: البالي، وأصله من الأخلق أي الأملس. والمقصود بالمفَتَّش القلبُ والجوهر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشعراء المحدثين، وخاصة في كتابه المشهور عن "أخبار أبي تمام"، وكتابه عن "أخبار الشعراء المُحدَثين".

ويكفي هذا الشعرَ المُحدَث اعترافا بمكانته الأدبية الإبداعية، وإنصافا له من خصومه وسائر المتعصبين عليه، أن يشهد له كبارُ شيوخ الأدب والنقد، كالجاحظ، الذي اعتمده مادةً أدبية وحجةً لغوية في كتاباته، وهو القائل في الانتصاف للشعر المُحدَث: "وقد رأيت ناسا منهم يبهرجون أشعارَ المُولَّدين [أي يحكمون عليها بالرداءة]، ويستسْقِطون مَن رواها. ولم أر ذلك قط إلا في راويةٍ للشعر غير بصير بجوهر ما يروي. ولو كان له بصرٌ لعرَف موضعَ الجيد ممن كان، وفي أي زمان كان."[85]

ومن هذا الباب ما قاله في حق أبي نواس، وهو عَلَمٌ في المُحدَثين: "وإن تأملتَ شعرَه فضّلته، إلا أن تعترضَ عليك فيه العصبيةُ، أو ترى أن أهلَ البدو أبدا أشعرُ، وأن المُولَّدين لا يقاربونهم في شيء. فإن اعترض هذا البابُ عليك فإنك لا تبصر الحقَّ من الباطل ما دمت مغلوبا."[86]

ويكفي الشعراءَ المحدثين أيضا، أن يشهد لهم أمثالُ المبرد (أبي العباس محمد بن يزيد)، شيخِ اللغويين والنحاة، حيث خصص بابا في كتاب "الكامل" لطريف أشعارهم[87]. وقد قدم لمختاراته في هذا الباب بعبارات تفيد كلُّها الاستجادَة، والاستحسان، والاستصواب، والاستملاح، مِن مثل قوله: "ومما استطرفنا من شعر المُحدَثين قولُ يعقوب بن الربيع..."[88]، وقوله :"ومن مليح

---

[85] الحيوان: 130/3.

[86] نفسه: 27/2.

[87] الكامل: 92/4.

[88] نفسه: 94/4.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شعره قولُه..."[89]، وقوله : "وقال بعضُ المُحدَثين-وليس بناقصه حظَّه من الصواب أنه مُحدَث..."[90]. وقد صرح بأن لكلام المُحدَثين حلاوةً حينما وصف أحدَ الشعراء بأنه كان "له في شعره شدةُ كلام العرب بروايته وأدبه، وحلاوةُ كلام المُحدَثين بعصره ومشاهدته..."[91].

وقد خصص المبرد في الجزء الثاني من كتاب "الكامل" أيضا، بابا "في المختار من أشعار المولدين"[92]، وبدأه بقوله: "قال أبو العباس: هذه أشعارٌ اخترناها من أشعار المولَّدين حكيمة مستحسنة، يحتاج إليها للتمثل، لأنها أشْكَلُ بالدهر، ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب."[93] وقد أورد في هذا الباب أشعارا لكثير من الشعراء المعدودين في المُحدَثين، كعبد الصمد المعذل، وبشار بن برد، ومحمود الوراق، وأبي نواس، وصالح بن عبد القدوس وغيرهم.

ويكفي الشعرَ والشعراء المحدَثين، اعترافا وإنصافا، تصنيفُ الكتب في أخبارهم وطبقاتهم، والعنايةُ بالترجمة لأعلامهم ومشاهيرهم، كما فعل ابن المعتز في طبقاته، وكذلك المرزباني في مُوشَّحه، وابن قتيبة في "الشعر والشعراء"، وأبو بكر الصولي في "أخبار أبي تمام"، و"أخبار الشعراء المُحدَثين".

---

[89] نفسه: 96/4.

[90] نفسه: 18/4.

[91] نفسه: 61/4.

[92] نفسه: 3/2.

[93] نفسه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثالث

الشعر المحدث والشعراء المحدثون في الخطاب النقدي الحداثي

الحداثيّون والشعر المحدَث

كيف نظر النقد الحداثيُّ المعاصر إلى ظاهرة الشعر المُحدَث في تاريخ الشعر العربي؟

كيف تناول النقاد الحداثيون هذا الشعرَ المحدث، وكيف فهموه وقوّموه؟

هل للحداثيّين من إضافات متميزة في دراسة هذه الظاهرة الشعرية التاريخية؟ وإن كانت لهم إضافاتٌ، فما هي قيمتُها في ميزان النقد؟

قبل محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة وأمثالها المتعلقة بالكتابات النقدية الحداثيّة حول الشعر المحدث والشعراء المحدَثين، لا بأس من التذكير، في عبارات موجزة، بأن الدراسات النقديةَ التي أنجزت حول الشعر المحدث، تعريفا وتحليلا وتقويما، قبل الستينيات من القرن العشرين، قد استطاعت أن تحيطَ بكل خصائصه وأبعاده الفنية واللغوية والبلاغية، فضلا عما تميز به هذا الشعرُ، على مستوى المضامين والموضوعات التي تفوّق فيها بعضُ الشعراء، تعبيرا ووصفا وإبداعا.

وقد وقفت هذه الدراساتُ النقدية، التي اشتهرت في النصف الأول من القرن العشرين، في تقديرنا، على مختلف الصفات الفنية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والمضمونية التي عُرف بها الشعراء المحدَثون بين معاصريهم، وفي مصنفات النقاد الذين اهتموا بالموضوع فيما بعد. وهكذا، عرفنا، من خلال هذه الدراسات النقدية، الكثيرَ، مثلا، عن خمريات أبي نواس، وزهديات أبي العتاهية، ومدائح البحتري، وأهاجي ابن الرومي، وحماسيات المتنبي، وحربيات أبي تمام، و"لزوميات" أبي العلاء وفلسفياته...إلخ. وكذلك عرفنا، بصورة واضحة ومستفيضة، ما امتاز به الشعر المحدثُ، فيما يخص البناء العروضيَّ، والمعجم اللغويَّ، والأسلوب التعبيريَّ، والوصف التصويريَّ، والتخييل الاستعاريَّ، وغيرَ ذلك من المباحث التي تهتم بخصائص الإبداع الشعري، في الشكل والصورة، والصياغة اللغوية والأسلوبية.

كلُّ هذا قرأناه في الدراسات الأدبية والنقدية التي أنجزها، في النصف الأول من القرن العشرين، كتابٌ كبار، كعباس محمود العقاد، في دراسته عن ابن الرومي، وأبي نواس، وطه حسين، في دراسته عن أبي العلاء المعري، والمتنبي، ومقالاته عن القدماء والمحدثين في "حديث الأربعاء"، ومحمد النويهي عن "شخصية بشار"، و"نفسية أبي نواس"، ومحمد نجيب البهبيتي في دراسته عن أبي تمام، إلى آخر الأبحاث والدراسات.

وفي أثناء الستينيات ظهرت بوادرُ فهمٍ جديد للظاهرة، حيث نُشرت مقالاتٌ تتحو نحو مخالفةِ معظمِ النتائج والمعلومات التي قررتها الدراساتُ السابقة التي دار موضوعُها حول الشعر المحدث وأعلامِه، سواء في إطار تأريخي، أو تحليلي نقدي، أو أدبي وصفي.

وقد امتازت آراءُ أدونيس وتلامذة مدرستِه، من بين الكتابات النقدية الحديثةِ، بأفكارها الغريبة في هذا الموضوع. وسنقف في الفقرات التالية، بشيء من الإيجاز والتركيز، عند أهم مكونات هذه الآراء، وسنحاول أن نناقشَ مقولاتِها، وأن نفهمَ ونوضّح الأصلَ الذي انبنت عليه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(1)

مزاعم أدونيسية

يزعم أدونيس أن تسمية الشعر المحدث مُحدَثا، ووصفَ أصحابه بالشعراء المحدثين، إنما هو عملٌ نابع من الثقافة الاتباعية التي كانت تسود المجتمعَ العربي الإسلامي، والتي كانت تتهم كلَّ مَن يخرج عن الأصول بالإحداث، "نافية عنهم بذلك انتماءَهم الإسلامي"[94].

ويقوم هذا الزعمُ على النظر إلى اصطلاحاتِ "إحداث" و"مُحدَث" و"مُحدَثون" على أنها مستقاة من "المعجم الديني"، وذلك "أن الحديثَ الشعريَّ بدا للمؤسسة السائدة(كذا)، كمثل الخروج السياسي أو الفكري، خروجا على ثقافة الخلافَة، ونفيا للقديم النموذجي. ومن هنا نفهم كيف أن الشعريَّ في الحياة العربية امتزج دائما بالسياسي-الديني، ولا يزال يمتزج به حتى الآن."[95]

وبعبارة أخرى، فإن الشعر القديمَ، وهو ديوان اللغة العربية الفصيحة، كان، حسب رأي أدونيس، بمثابة الأصول الدينية المقدسة في القرآن والسنة. فكما أن الخارجَ على الأصول الدينية هو متهم بالإحداث والابتداع، فكذلك الخارجُ على الأصول اللغوية والشعرية القديمة؛ فاللغة والشعر القديمان متطابقان، إذن، في القداسة والأسبقية والأولية، مع أصول الدين. ولمّا كانت السلطة السياسيةُ إنما تستمد مشروعيتَها مِن أصول الدين، فقد كان طبيعيا أن تُواجِه

---

[94] الشعرية العربية، لأدونيس، ص80.

[95] نفسه، ص80،81.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كلّ ثقافة تخالف هذه الأصولَ، ومنها ثقافةُ الحداثة التي أنتجت "الشعر المحدث"[96].

وقوامُ هذه الرؤية وفلسفتُها، في "الحداثة الأدونيسيّة"، أن الزمن نوعان: زمنُ الوحي أو زمن الاتباع، وزمنُ التاريخ أو زمن الإبداع. وعليه، فإن "المجتمع الذي يجد أصلَه ومَعادَه في الوحي...يعيش خارجَ الحركة التاريخية مُعلَّقا بين ماضٍ هو الوحيُ ومستقبلٍ هو النشور. ومن هنا لا تعني له عباراتٌ كالإبداع وإعادةِ النظر والحداثةِ إلا خروجا على الأصل."[97]

وفي منظور هذه الرؤية الأدونيسية، فإن "الشعر المحدث" قد اكتسب شرعيّتَه بجوهره الإبداعي، الذي يعني، فيما يعنيه، تحطيمَ أصول الثقافة الاتباعية، وهي القرآنُ والشعرُ الجاهليُّ وما يتعلق بهما-حسب أدونيس دائما-، وتخطيَ زمنِهما إلى الزمن التاريخي، زمنِ الحرية والحداثة والتغيير. فالتقدم والمستقبل إنما هما كامنان في هدم البُنى التقليدية، أي التخلص "من المبنى الديني التقليدي الاتباعي، بحيث يصبح الدينُ تجربة شخصية محضة، وبأنه لا أوليةَ للمعنى على الصورة، أو النطق على الكتابة، بل هناك جدلية وحدةٍ فيما بينهما."[98]

وبلغة أوضح، يجب، كما يقول أدونيس: "تحريرُ العربي من كل سلفية، ووجوب إزالة القدسية عن الماضي والنظر إليه كجزء من تجربة أو معرفة غير ملزمة إطلاقا، والنظر إلى الإنسان، تبعا لذلك، على أن جوهره الإنسانيَّ الحقيقيَّ هو في كونه خلاّقا مغيِّرا أكثر منه وارثا ومتابعا."[99]

---

[96] نفسه، ص83.

[97] الثابت والمتحول،(الأصول)، ص40.

[98] نفسه، ص33.

[99] نفسه، ص34.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وملاحظتُنا الأولى على هذه الرؤية أنها قررت النتيجةَ أولا[100]، ثم راحت تبحث لها عن مقدمات، مما أوقعها في كثير من التمحّل والتعسف، كما سنوضح في التعليقين التاليين:

التعليق الأول

لا يستطيع أحدٌ أن يثبت بنصوص قطعية أو ظنية أن اصطلاح "مُحدَث" في الشعر إنما هو وليد الاصطلاح الديني. وإلا، فقد مر بنا في الفصل الأول من هذا البحث أن "المحدث"، في الاصطلاح الشرعي، هو غيرُ المحدث في الاصطلاح الأدبي الشعري، وأن الجامعَ بينهما إنما هو جامعُ المعنى اللغوي، الذي هو الاختراعُ والابتداعُ والخلقُ على غير مثال سابق، لا غيرُ.[101]

ثُم لماذا انتشر اصطلاحُ الإحداث الشعري في العصر العباسي، أيْ في النصف الثاني من القرن الثاني تقريبا، ولم يظهر في العصر الأموي، أو في العصر الإسلامي الأول، أي عهدِ الراشدين؟

ألمْ يعرف الشعرُ العربيُّ في أثناء هذه المدة الزمنية الطويلة (أكثر من قرن) شعراءَ خرجوا، في كثير من إبداعاتهم وأغراضهم ومضامينهم، على الأصول الموروثة في الشعر الجاهلي؟ ألم تعرف هذه الفترةُ شعراءَ ماجنين؟ شعراء غَزِلين؟ شعراءَ سياسيين معارضين؟

---

[100] هذه النتيجة المسبقة هي أن القرآن هو مدار الثقافة الاتباعية القمعية، وكل ما يمت إلى القديم فهو دائر في فلك القرآن، ولو كان في عقائده ومضامينه يضاد القرآن ويناقضه. وكل خروج= =على القرآن وتوابعه من أصول الإسلام وعقائده وشرائعه، فهو راسخ في ثقافة الحداثة والحرية والإبداع.

[101] يُراجع الفصل الأول من هذا البحث.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ألم تعرف هذه المدةُ شعرا امتاز بالجدة في معجم ألفاظه ونسج عباراته؟

فلو كان المُحدَث الشعريُّ مِن الإحداث الدينيِّ، كما يدّعي أدونيس ومَنْ يذهب مذهبَه ويقولُ بمقالتِه، لكان أولى بهذا الوصف، قبل بشار وأبي نواس وغيرهما مِن شعراء العصر العباسي، أبو محجن الثقفي، وسحيم عبد بني الحسحاس، وجميلُ بثينة، وعمر بن أبي ربيعة، والأخطل ، وجرير، والفرزدق، وغير هؤلاء كثير، ممن جاؤوا في أشعارهم بأشياء كثيرة تعارض بعضَ أصول الإسلام، وتتجاوز سننه وأخلاقه وآدابه، في الفكر والتصور والرؤية والسلوك.

إن ملاحظتَنا هاته تؤكد أن اصطلاح "المحدث" إنما اخترعه علماءُ اللغة، أساسا، من أجل التمييز بين لغتهم المثالية التي يقرأونها في الشعر القديم، واللغة الجديدة التي يمتاز بها المحدثون من شعراء الحواضر. ويزكي هذا ويثبّته أنهم استعملوا مع اصطلاح "محدث" اصطلاحا ثانيا هو "مولد"، والاثنان يردان مترادفين في استعمالات اللغويين والأدباء والنقاد على السواء. وقد كانت منا إشاراتٌ إلى هذا في الفصلين السابقين، فضلا عن النصوص التي أوردناها، والتي قرأنا فيها استعمال المصطلحين (محدث ومولد-محدثون ومولدون) مترادفين.

فلِم سكت أدونيسُ وأصحابُه عن مصطلح "مولد"، واكتفوا بِـ"محدث"؟ لأن "مُحدَث" هو الذي يستجيب لشروط نظريتهم المُقرَّرَة سلفا، وهي أن الدينَ، بكل لوازمه، هو معدن التخلف، وتعطيلِ الحريات، وقمعِ مواهب الإبداع.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التعليق الثاني

ومِن مُكونات النتيجة المحدَّدَة سلفا، في القراءة الأدونيسية للشعر المُحدَث، دعوى أن المسلمين نظروا إلى "جاهلية اللغة والشعر من منظور ديني."[102]

وقد تعسف أدونيس، في رأينا، أيما تعسف حينما بنى على هذه الدعوى أن القرآن كان، في الثقافة الاتباعية، مثلُه مثلُ الشعر الجاهلي، مِن حيث كون كلٍّ منهما أصلا وإجمالا، وما يأتي بعدهما هو من قبيل التفصيل.

فإذا صح هذا الأصلُ والإجمالُ في حق الوحي الذي هو حقٌّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خلفه، والذي هو تنزيل مِن لدن عزيز حكيم، فكيف يصح، بل كيف نَفرض أن يكون للشعر الجاهليِّ الشأنُ نفسُه؟

ويُلاحظ أن أدونيس قد احتال لذلك بالتمييز بين الكلام والمعنى، وجعلَ الكلامَ مقابلا للشكل، والمعنى مقابلا للمضمون[103]، ثم انتهى إلى استنتاج تطبعُه، حسب رأيي، المغالطةُ والاعتسافُ الكبير؛ يقول أدونيس: "فالنورُ العربي، بحسب هذا المنحى الاتباعي الثبوتي واحدٌ أولُه النبوّةُ دينيا، والشعرُ الجاهلي أولُه شعريا، والأفضليةُ تتدرج تبعا لتدرج القرب من الأولية."[104]

ويزعم أدونيس، في موضع آخر مِن بحثه، أن المدافعين عن الشعر الجاهلي والإسلامي، في القرن الأول، أضفوا "عليه خصائصَ القدم، بالمصطلح الديني-الفلسفي، وفي طليعتها الثباتُ

---

[102] الثابت والمتحول،(الأصول)، ص29. اقرأ تفصيلات أخرى في محاضرة "الشعرية والحداثة"، في "الشعرية العربية"، ص79 وما بعدها.

[103] نفسه، ص29.

[104] نفسه، ص30.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والكمال."[105]يقصدُ بالمصطلح الديني الفلسفي معنى الذي وُجِد بذاته ولم يسبقْه شيء.

ثم يَذكرُ أن مِن بين النتائج التي أدت إليها هذه النظرةُ الاتباعية، التي تجمع الدينَ واللغة والشعر في دائرة الأصل المقدس الكامل، أن الشعرَ لم يعد "إبداعا، بل صناعة. ليس الشعرُ أن يبتكر الشاعرُ أشكالا وطرائق جديدة، بل أن يستعيد الأصلَ، أو يصنع شكلا آخر يماثل الأصلَ ويكون امتدادا له، فيعبر بلغة تحاكي لغةَ الأصل."[106]

ووجهُ الاعتساف في هذا الكلام أنه يقوم على افتراضٍ يشهد التاريخُ أنه غيرُ صحيح، لكن أدونيس يقدمه على أنه مُسلَّمةٌ قطعيّة الثبوت.

هذا الافتراضُ الفاسدُ في دعوى أدونيس هو أن الإسلامَ كان له واجهتان: واجهةٌ دينية تتمثل في القرآن ومتعلقاته، وواجهةٌ أدبية يجسدها الشعرُ الجاهلي واللغةُ التي يحملها هذا الشعر.

والمعروفُ، بالوقائع الثابتة والأخبار المتواترة، أن الإسلام إنما تعامل مع اللغة بما هي كيانٌ اجتماعي، وبما هي أداةٌ للتواصل، والتفاهم، والدعوة، والتعبير، لا غير. وقد احتاج العلماء إلى لغة الشعر الجاهلي لفهم النص القرآني، وكذلك النص الحديثي، ولا شيء غير هذا. أما الشعرُ بما هو بناء فني، ومعجم لفظي، وأسلوبٌ في التعبير والتصوير، فقد خضع ، كسائر المناشط الإنسانية، الأدبية وغير الأدبية، إلى سنة التطور مِن غير أن يكون للدين، بأصوله في القرآن والسنة، أيُّ دخل في الموضوع. أما إن كان هناك في الناس متشددون متعصبون للقديم، وآخرون ميّالون للتغيير مناصرون للجديد، فإن ذلك من طبيعة سنة الله في تطور المجتمعات والأفكار

---

[105] نفسه،(تأصيل الأصول)، ص126.

[106] نفسه، ص73.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والفنون والأذواق، وهي سنّة ماضية في كل زمان، لا تتأخر، ولا تتعطل، ولا تتبدل.

فهذا الافتراضُ الخاطئ الذي انطلق منه أدونيس على أنه حقيقة قطعية ثابتة، هو الذي جعله يجزم بأن هذا "القديم الأصوليَّ، دينا ولغةً وشعرا، بحسب هذه الثقافة [يقصد ثقافة الأصول]، نموذجُ المعرفة الحقيقية النهائية. ويعني ذلك أن المستقبلَ متضَمَّنٌ فيه، أي لا يجوز لمن يَصدر عن هذه الثقافة أن يتصور إمكانَ نشوء حقائقَ أو معارف تتخطى ذلك القديم."[107]

وإذا أخذنا بظاهر هذا الاستنتاج، فإن أولَ ما يعنيه أن المسلمين، الذين تشبثوا بدينهم، لم يستحدثوا في تاريخهم أية معارف وعلوم، ولم تكن لهم أيُّ مشاركة نوعية إيجابية في الحضارة الإنسانية، وإنما حظُّ المعارف والعلوم والمشاركة الحضارية الإيجابية كان من أصحاب التيار الإبداعي، أيْ الملاحدة والمُجان والزنادقة وغيرهم من الخارجين على الدين. وهذا قولٌ لا يقول به أحدٌ من عوام العقلاء، فضلا عن الباحثين المتخصصين المنصفين.

فكيف يزعم أدونيس، وهو الباحث الواسع الاطلاع على التراث العربي الإسلامي-كما يدعي لنفسه ويدعي له تلامذتُه-أن العربي المسلم كان "يستخدم موروثه ليفهمَ كلَّ شيء. وما لا يضيئه هذا الموروثُ لا يكون جديرا بأن يعطى أيةَ قيمة..."[108]؟ وإلا، فكيف يفسر أدونيس وأصحابُه نبوغَ علماء فطاحل من المسلمين في العلوم التجريبية وعلوم مستحدثة أخرى؟

---

[107] الشعرية العربية، ص82،83.

[108] الثابت والمتحول،(الأصول)، ص28.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(2)

أحكام نقدية على غير أساس

من المرتكزات التي أقام عليها أدونيس قراءتَه "الحداثية" للشعر المحدث، في تاريخنا الأدبي، القطعُ بأن النقد القديم لم يُقم أيَّ اعتبار لهذا الشعر، ولم يقوِّمه بما هو فنٌّ وتصوير وإبداع، بل ردّه وحكم عليه بِـ"الفساد"، والبطلان، لخروجه على عمود الشعر الموروث، أي خروجه على الأصول الجاهلية، التي كانت عندهم بمثابة الماضي المقدس الكامل، الذي ينبغي أن يكون هو المقياس الوحيد لكل عمل في المستقبل. هذا هو ملخص رأي أدونيس فيما يخص هذا المرتكز.[109]

فهو يزعم أنه استخلص مِن كتابات النقاد العرب القدامى حول الشعر المحدث ثلاثة أمور: أولها أن الشعر المحدث دخيل على الشعر العربي، ولعل النقادَ سمّوه مُحدَثا لبدعِيَّته[110].

ثانيها أن الشعر الجاهليَّ هو الأصل المطلق المكتمل، فهو إذاً المقياس الفني النهائي[111].

---

[109] راجع هذا الرأيَ مفصلا في دراسته حول "الشعر العربي ومشكلة التجديد"، في مجلة "شعر"، العدد21، السنة6، شتاء 1962، ص90-106، وفي كتاب "الثابت والمتحول"، وخاصة في الجزء الثاني، الذي أفرده لِـ"تأصيل الأصول"، وفي كتاب "مقدمة للشعر العربي"، في الفقرة الثانية بعنوان "التساؤل"، ص37-67، وفي محاضرته حول "الشعرية والحداثة"، في كتاب "الشعرية العربية"، ص79-112.

[110] الشعر العربي ومشكلة التجديد، مجلة "شعر"، ص90.

[111] نفسه، ص91.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وثالثها أنه "يشترط في كل تجديد حقٌّ أن يكون متمشيا مع ذلك النموذج وأصوله."[112]

والمَطعن في هذا الرأي هو أنه يعمّ بالحكم جميعَ ما كتبه النقادُ العرب. هذا ما أفهمه، أنا على الأقل، حين أقرأ قولَ أدونيس: "نستخلص مما كتبه النقادُ العرب..."[113]. وفي الهامش يخص بالذكر كبارَ هؤلاء النقاد، فيَذكر أسماءَ محمد بن سلام الجمحي، وقدامة بن جعفر، وابن رشيق، والآمدي، والجرجاني[114].

فقدامة بن جعفر، مثلا، في كتابه "نقد الشعر"، استجاد الشعرَ المحدث في أكثر من موضع، بل نجده ينسب بعض شعرائه إلى الفحولة والصواب والاستحسان[115].

والآمدي(الحسن بن بشر بن يحيى)، في "الموازنة"، ليس هو القائلَ "أولُ من أفسد الشعر مسلم بن الوليد، ثم اتبعه أبو تمام..."، كما يُفهم من ظاهر عبارة أدونيس[116]، وإنما هو يحكي ما يرويه محمد بن القاسم بن مهرويه عن أبيه[117]، وذلك في سياق عرض احتجاج الفريقين، أصحابِ أبي تمام وأصحاب البحتري[118]، وأيضا

---

112 نفسه.

113 نفسه، ص90.

114 نفسه، ص101، هامش رقم(3).

115 راجع، مثلا، ص80،83،86من كتاب "نقد الشعر". انظر أيضا: "المصطلح النقدي في "نقد الشعر""، للدكتور إدريس الناقوري، ص131،132.

116 الشعر العربي ومشكلة التجديد، مجلة "شعر"، ص90، والهامش رقم(1)، في ص101.

117 الموازنة، ص19، وص125.

118 نفسه، ص19.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في معرض حديثه عن "أخطاء أبي تمام في اللفظ والمعنى"[119]. بل وجدناه يعقد في نهاية كتابه بابا "في فضل أبي تمام"[120].

ثم إن للرجل، أي الآمدي، رأيَه، على كل حال، لأنه ناقد محلل، مِن صنعته الموازنةُ والتقويم والترجيح. فإن كان يُفهم من موازنته أنه ميّال إلى طريقة البحتري، فهذا لا يعني، على الإطلاق، أنه يردّ شعر أبي تمام ويطعن على الشعر المحدث. بل نجد في كثير من كلامه اعترافا صريحا بالشعر المحدث، وإن كانت له عليه ملاحظاتٌ وانتقادات.

مثلا، الروايةُ التي تذكر أن مسلم بن الوليد هو أول من أفسد الشعر، ثم اتبعه أبو تمام، ساقها الآمدي مساقا نقديا، حاول من خلاله أن يبين رأيه بكل وضوح. فهو يعترف أن لأبي تمام "مخترعات كثيرة، وبدائع مشهورة"[121]، ويذكر أنه وَجد خصومَ أبي تمام ينعون عليه "كثرة غلطه، وإحالَته، وأغاليطَه في المعاني والألفاظ"[122]. ثم يبين أن أسباب ذلك، في رأيه طبعا، ترجع إلى ما رُوي من أن أبا تمام كان "يريد البديع فيخرج إلى المحال"[123].

وفي هذا السياق النقدي، الذي لا علاقة له بالتعصب الأعمى للقديم على المحدث، ولا علاقة له بالفهم الذي قرره أدونيس-في هذا

---

119 نفسه، ص125.

120 نفسه، ص378.

121 نفسه، ص124.

122 نفسه.

123 نفسه، ص125.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السياق أورد الآمدي، للاستئناس والتوضيح[124]، رواية "محمد بن القاسم بن مهرويه عن أبيه أن أولَ من أفسد الشعر مسلم بن الوليد، وأن أبا تمام تبعه فسلك في البديع مذهبه فتحير فيه"[125]. ثم قال، بعد هذه الرواية مباشرة، موضحا رأيه وفهمَه لمعنى الإفساد المقصود: "كأنهم يريدون إسرافَه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات، وإسرافَه في التماس هذه الأبواب، وتوشيح شعره بها، حتى صار كثيرٌ مما أتى به من المعاني لا يُعرف ولا يُعلم غرضُه فيها إلا مع الكد والفكر وطول التأمل، ومنه ما لا يُعرف معناه إلا بالظن والحدْس."[126]

هذا هو السياق الذي وردت فيه الروايةُ التي أسندها أدونيس للآمدي، وبنى عليها أن الرجلَ كان من خصوم الشعر المحدث، وهو حكم مناقض، تماما، للحقيقة التي يكشفها سياق الرواية، فضلا عن فصول الكتاب وأبوابه.

وقد امتاز أدونيس، في كثير من كتاباته، بهذا الأسلوب الذي يقتطع النصوصَ من سياقاتها، ويدرجها في سياقات مخالفة أو مناقضة، قصد الوصول إلى تقرير فكرة أو نظرية أو حكم قبلي مُسبق مُبيّت. وهذا الأسلوب، في رأينا، مهما تكن مسوغاتُه وتأويلاتُ صاحبه، ليس مِن أمانة البحث العلمي في شيء.

وابن رشيق، في العمدة، وإن كان هواه يسير مع القديم، فإنه لم ينف شعريةَ المحدث، بل وجدناه يستشهد به في كثير من الموضوعات، ويذكر الفضائلَ التي امتاز بها الشعراء المحدثون.

---

[124] لأنه قال، بعد أن أورد الرواية التي تذكر أن أبا تمام كان يريد البديع فيخرج إلى المحال: "وهذا نحو...ما رواه محمد بن داود عن محمد بن القاسم...إلى آخر الرواية."(الموازنة، ص125.)

[125] نفسه.

[126] نفسه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن تمام عنايته بالشعر المحدث أنه خصص بابا، في الجزء الثاني من عمدته، للمعاني المحدثة[127]. وقد ذكر في هذا الباب أن المحدثين قد شاركوا القدماءَ في كثير من الفضائل التي تحسب لهم[128]. بل نجده يَعِد بإفراد كتابٍ قائم بنفسه يذكر فيه "ما انفرد به المحدثون، وما شاركهم فيه المتقدمون"[129].

وهذا الكلام من ابن رشيق قاطع في دلالته على أن الشعر المحدث والشعراء المحدثين كان لهم اعتبارٌ لدى النقاد، وإن اختلفت، بعد ذلك، مواقفُ هؤلاء النقاد في النقد والتقويم والحكم.

ومما مثّل به ابنُ رشيق في هذا الباب، مما انفرد به المحدثون، قول بشار:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة * والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا:بمن لاترى تهذي؟فقلت لهم * الأذنُ كالعين توفي القلبَ ما كانا

وقوله، في المعنى نفسه:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلّقها * قلبي وأمسى به من حبها أثر:

أنّى ولم ترها تهذي؟ فقلت لهم * إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر.

وقوله:

وكيف تناسى من كأن حديثه * بأذني-وإن غُيّبت- قُرْط معلّقُ.

ثم قال بعد إيراد هذه الأمثلة: "واختراعاتُه كثيرة، واشتهارُه بذلك يغني عن الإنشاد له."[130]

---

[127] العمدة: 2/236-245.

[128] نفسه: 2/241.

[129] نفسه.

[130] العمدة: 2/242.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن الأمثلة التي اختارها لأبي نواس قولُه:

بنينا على كسرى سماء مدامـــة * مكلّلة حافاتها بنجـــــــوم

فلو رُدّ في كسرى بن ساسان روحه * إذاً لاصطفاني دون كل نديـم.

وقوله أيضا:

قد قلت للعباس معتـــذرا * من ضعف شكريه ومعترفـــا:

أنت امرؤ جللتني نعمـــا * أوهت قوى شكري فقد ضعفا،

فإليك مني اليوم تقدمة * تلقاك بالتصريح منكشفـــا

لا تسدينَّ إليّ عارفـــة * حتى أقوم بشكر ما قد سلفـا.

وشهد لأبي نواس، أيضا، بأن معانيه واختراعاته كثيرة[131].

هذا مثال فقط، من أمثلة كثيرة تخرج عن الحصر، على احتفاء ابن رشيق بالشعر المحدث وشعرائه.

فما قيمةُ ما قاله أدونيس أمام هذه الحقيقة، مِن كلام ابن رشيق، الثابتة الشاهدة شهادةَ عيان؟

وهذا هو القاضي الجرجاني (علي بن عبد العزيز)، في "الوساطة" أيضا، لا يفتأ يستشهد بالشعراء المحدثين ويصوّب مذهبَهم، ويستحسن أشعارهم، وله كلامٌ واسع في تقدير الشعر المحدث، من ذلك قوله، رادّا عن نفسه تهمةَ الغضّ من أبي تمام، بعد أن أورد بعضَ انتقاداته على شعره: "فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه، وأنتحل موالاتَه وتعظيمَه، وأراه قبلةَ أصحاب المعاني، وقدوةَ أهل البديع..."[132]

---

[131] نفسه: 2/244،243.

[132] الوساطة، ص19،20.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونفس المقال نكرره فيما يخص سائر النقاد الذين ذكرهم أدونيس، والذين لم يذكرهم، كابن قتيبة، والجاحظ، وأبي بكر الصولي، والمبرّد، والمرزباني، وغيرهم. فكل هؤلاء كان منهم اعتراف واضح بالشعر المحدث وتقديرُه، وإن اختلفت عباراتهم، وتباينت مذاهبهم وزوايا نظرهم إلى الموضوع. وكُتب هؤلاء الأدباء والنقاد أقوى شاهد في هذه الدعوى.

وقد عرفنا في الفصل السابق من هذا البحث أن أقسى مقالات الرفض والطعن والتشنيع على الشعر المحدث إنما صدرت عن الرواة وعلماء اللغة، وذلك لأسباب غيرِ معتبرة في موازين العدل والإنصاف. وقد بيّنت أن السبب الذي كان حملهم على الإفراط في التعصب للقديم هو، أساسا، سعيُهم وراء الغريب، وطلبُهم للشاهد اللغوي ،.كما أشرت إلى أنه، على الرغم من ذلك التعصب والتشدد، كانت تظهرُ منهم، في أحيان كثيرة، عباراتٌ إزاء الشعر المحدث تشي بالاستجادة والاستحسان.

ولكننا حينما نعود إلى رؤية أدونيس في الموضوع، فإننا نجده يجمع هؤلاء الرواةَ من علماء اللغة مع علماء الشعر مِن الأدباء والنقاد في سلة واحدة من غير تمييز. ونُرجح أن أدونيس قد فعل ذلك عن معرفة وقصد، وإلا فما نظن أن الرجل، وهو مَنْ هو في سعة الاطلاع، لم يكن يعرف الفرقَ بين الفريقين، وأن الأحكامَ التي ناصبت الشعرَ المحدث العداءَ إنما كانت من فريق علماء اللغة، أما علماءُ الشعر من الأدباء والنقاد والبلاغيين فقد تعاملوا كلُّهم، من غير استثناء، في حدود علمي، وحسب اطلاعي، مع الشعر المحدث تعاملا إيجابيا، على اختلافٍ-وهذا شيء طبيعي- في مناهجهم ومذاهبهم وأذواقهم وعواطفهم تجاه هذا الشعر، حيث كان منهم المغالي إلى حدّ التعصب المذموم، وكان منهم المعتدل، وكان منهم الخصم المنتقد، لكن ذلك كله كان في دائرة الاعتراف لهذا الشعر بأدبيته وفنيته وخصوصياته الإبداعية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والذي نستخلصه من هذه المناقشة أن أدونيس إن كان يقصد فيما جاء به عن الشعر المحدث أن يُنصف هذا الشعرَ ويردّ له الاعتبار، فالمعروف الذي لا يرقى إليه شك، والذي تؤكده الشهاداتُ والمقالات التي تزخر بها كتابات النقاد القدامى، هو أن هؤلاء القدامى قد سبقوه إلى ذلك بما وفّى بالمطلوب وزاد عليه، عند بعض الأدباء، إلى حدٍّ كاد ينال من حق الشعراء المتقدمين، كما عند أبي بكر الصولي مثلا.

أما الأسلوبُ الذي اختاره أدونيس وتلامذةُ مدرسته للدفاع عن هذا الشعر، وترسيخ شرعيته، وتبيان فرادته، فقد طَبَعته كثيرٌ من المغالطات، كما بينتُ، فضلا عن تعميم الأحكام، وانتزاعِ الروايات والشواهد من سياقاتها الحقيقية، وزرعِها في سياقات تُخرجها عن المعنى الذي كانت تؤديه في سياقها الطبيعي، وإكراهِها على أداء معان تناسب الصورةَ المرسومة سلفا، والنتيجةَ المحددة مسبقا.

(3)

تناقض وتلفيق وتزوير

لقد أوردت في السابق إشارات عديدة تؤكد أن الشعر المحدث قد لقيَ عنايةً كبيرة لدى النقاد والأدباء القدامى من علماء الشعر، إلى درجةٍ نُسيت معها مقالاتُ أولئك المتعصبين من علماء اللغة، الذين أسَفّوا في الخصومة والعناد، وأصبح للشعراء المحدثين مكانتُهم الأدبية، يُقوّمهم المُقوّمون بإبداعهم، ويزنهم الوازنون بما في شعرهم من إضافات فنية تناسب روح زمانهم، وتستجيبُ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لدواعي نفسياتهم ومشاعرهم، سواء في المعاني أو في الأساليب أو في غيرها من مقومات الصنعة الشعرية[133].

وها هو ذا الأديب مصطفى صادق الرافعي، مثلا-وهو واحد من أدباء العربية الكبار- ينظر من زاويته إلى الشعراء المحدثين، فيلخصُ لنا رؤية القدامى لهم، فيرى أنهم امتازوا، في اختراعهم، بأنهم "نظروا إلى مغارس الفطن ومعادن الحقيقة ولطائف التشبيهات، فأحكموا سرها وساروا إليها بالفكر الجيد والغريزة القوية، وقد التقى إليهم طرفا العربية في منطقة البداوة الزائلة ومفتتح الحضارة الثابتة، فأصبح شعرهم خلقا جديدا...وكان من افتتان هؤلاء المحدثين أن نصبوا لأنفسهم منزلةً تضارع المنزلة التي وقف عندها الشعر القديم، فصار يُستشهد بهم في المعاني كما يُستشهد بالقدماء في الألفاظ. وعلماءُ الأدب مجمعون على أن أكثر الشعراء المُولَّدين اختراعا وتوليدا أبو تمام وابن الرومي."[134]

هذا هو، تقريبا، ملخص الرأي الذي سار عليه عامة الأدباء والنقاد تجاه الشعر المحدث، حتى نبتت نابتةُ الحداثيين، وفي مقدمتهم المدرسة الأدونيسيةُ، التي سارت في التأويل إلى أبعد الحدود، وقرأت تراثَ المحدثين وأخبارَهم قراءةً خالفت كلَّ القراءات التي حفظتها لنا كتبُ النقد والأدب منذ العصر العباسي إلى يوم الناس هذا. وهكذا بدأنا نسمع، ولأول مرة، مَنْ يفلسف لنا

---

[133] يراجع في هذا الموضوع ما كتبه الدكتور نجيب محمد البهبيتي عن القدماء والمحدثين، في الباب الرابع من كتابه: "أبو تمام، حياته وحياة شعره"، ص172 وما بعدها. وتراجع، أيضا، مقالات الدكتور طه حسين عن القدماء والمحدثين، في الجزء الثاني من "حديث الأربعاء"، ص323 وما بعدها.

[134] تاريخ آداب العرب: 55/3.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المحرماتِ والمعاصي، ويرفعها إلى ذروة المعالم الحداثية في شعر شعراء الخلاعة والمجون، ويجعل المجونَ هو عين الحياة[135].

أما حداثة بشار أستاذ المحدثين، كما وصفه القدامى، إنما ثبتَت له، في رأي أدونيس، لأنه "سخر من العقائد والسلطة، التي تمثلها، معلنا عقيدتَه الخاصة، وبشر باللذة وإباحيتها، بحيث ولد شعره معركةً من التحرر الأخلاقي-الجنسي جعل رجال الحديث والفقه يحاربونه ويحرضون عليه حتى قتله المهدي[136]"[137].

ما علاقة المحرمات بالخصائص الفنية للشعر المُحدَث؟

---

[135] الثابت والمتحول،(تأصيل الأصول)، لأدونيس، ص113،114. في هاتين الصفحتين نقرأ كلاما يفيض من الجراءة على الذات الإلهية المقدسة، في سياق تفسير أو فلسفة مجون شاعر منحرف.

[136] لم يكن بشار، في عقيدته وسلوكاته الماجنة، بهذه القتامة التي يقررها كلام أدونيس. بل إن شعر الرجل، فضلا عن أخبار كثيرة في سيرته، تشهد له بالإسلام. وقد اختلف مترجموه في السبب الحقيقي لقتله، وقد ذكروا من هذه الأسباب أنه قُتل بالزندقة. وهناك من رجّح-كما أشرت في غير هذا الموضع (راجع "طبقات ابن المعتز"، ص21-25)-أنه قُتل لسبب آخر. لكن أدونيس، وبسبب الصورة التي رسمها مسبقا لبشار، وكذلك بسبب النتائج المبيَّتَة التي يريد أن يصل إليها، يجزم بأن الرجل قد قتل بتهمة الزندقة، ولا يكلف نفسه عبءَ التحقيق في الأسباب الأخرى التي ذكرتها المصادر، بل اكتفى منها فقط بما يناسب شخصية بشار كما أرادها هو أن تكون: شاعر ماجن ملحدٌ خارجٌ على جميع شرائع الإسلام، لا يؤمن بعقيدة غير عقيدة اللذة والحرية والإباحية، وهي العقيدة التي قُتل بسببها.

[137] نفسه، (تأصيل الأصول)، ص107.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ما علاقة المضامين الغارقة في المعاصي والتهتك والمجون بالشعر، بما هو تصوير وتشكيل لغوي بديع؟

أين هو الإبداع، أصلا، في العقائد الفاسدة، والجرأة على المقدسات الدينية؟

أين هو الإبداع، أصلا، في وصف المعاصي والفواحش وسائر السلوكات الضالة والمنحرفة؟

أليس في هذا المذهب الحداثي الإديولوجي المتطرف تناقضٌ عجيب؟

أليس مِن مبادئهم الحداثية في النقد الأدبي، والنقد الشعري خاصة، أن يُقوّم الشعرُ في ذاته، بما هو إبداع فني، وليس بما هو وعاء مضموني؟

فلماذا يرتفع بشّارٌ وأمثالُه إلى مرتبة الحداثيّين الكبار بمضمون شعره أساسا؟

فنحن ههنا أمام مقياسين، أحدهما عقديٌّ مضمونيٌّ، والثاني شعريٌّ إبداعيٌّ. والملاحظ على النقد القديم، في أحكامه على المحدثين، غلبةُ موازين المقياس الثاني، أي المقياس الفني الإبداعي. فقد وجدنا القدامى يحكمون لبشار، مثلا، بالسبق والتقدم والبراعة في اختراع المعاني، مع أنهم كانوا يعرفون مِن مجانته أكثر مما نعرف، لكنهم نظروا إلى شعره بما هو تصوير وتفنن في التشكيل، واختراعٌ في التخييل. وما أكثرَ استحساناتهم لتشبيهاته خاصة؛ قال ابن المعتز: "وتشبيهاته-على أنه أعمى لا يبصر- مِن كلّ ما لغيره أحسن. ومن ذلك قوله:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنـــا * وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبـه."[138]

[138] طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص26.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي الأغاني أن الأصمعي كان "يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه، ويقول: كان مطبوعا، لا يكلف طبعه شيئا متعذرا، لا كمن يقول البيت ويحكّكه أياما."[139]

وكذلك شهد له الجاحظ بأنه أطبع المطبوعين في قوله: "والمطبوعون على الشعر من المولدين بشارٌ العقيلي، والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن أبي عُيينة. وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل، وسلما الخاسر، وخلف بن خليفة. وأبان بن حميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء، وبشار أطبعُهم كلهم."[140]

وقال فيه أيضا، وفي السياق نفسه: "...ولم يكن في المولدين أصوبُ من بشار، وابن هرمة."[141]

وكذلك شهد له ابن قتيبة في قوله: "وبشار أحد المطبوعين...وهو من أشعر المحدثين."[142]، وابن المعتز في قوله: "ولا أعرف أحدا من أهل العلم والفهم دفع فضلَه ولا رغِب عن شعره. وكان شعره أنقى مِن الراحة، وأصفى مِن الزجاجة، وأسلس على اللسان من الماء العذب..."[143].

ومع هذه المكانة الشعرية التي حظي بها بشار بن برد لدى الأدباء والنقاد، فقد كانت لهم مؤاخذاتٌ لا تخرج عن النقد الفني، لأن الشاعر، مهما بلغ في شاعريته، لا يمكنه أن يزعم أنه أصبح بعيدا عن الخطأ، أو أصبح أكبر من النقد والتصويب والمراجعة، إلا أن يختار ركوب مركب الغرور والعناد. "قال أحمد بن عبد الله بن عمّار: بشار أستاذ المحدثين الذي عنه أخذوا، ومن بحره اغترفوا،

---

[139] الأغاني: 149/3.

[140] البيان والتبيين: 50/1.

[141] نفسه، ص51.

[142] الشعر والشعراء، ص511.

[143] طبقات الشعراء، ص28.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأثرَه اقتفوا، يأتي مِن الخطأ والإحالة بما يفوت الإحصاء، مع براعته في الشعر والخطب."[144]

"وقد قيل إنه ينظم الشَّذرة، ثم يجعل إلى جانبها بعْرة"[145]. وقد مثلوا لذلك بعبارة "وبعض الجود خنزيرُ" في قوله:

فتى يباري كأسه كفّـــــه * جودا، وبعض الجود خنزيــرُ[146]

وقوله في الغزل:

إنما عظم سليمى خلّتي * قصب السكر لا عظم الجمــلْ

وإذا أدنيت منها بصــلا * غلب المسك على ريح البصـلْ.[147]

ويظهر أن بشارا نفسَه لم يكن راضيا عن بعض أشعاره، فقد رُوي أن أحدهم صاح به في مجلس: يا أبا معاذ، مَن الذي يقول: وذكر البيتين الأخيرين (إنما عظم سليمى...)، فغضب بشار، "وصاح: مَن الذي يقرّعنا بأشياء كنا نعبث بها[في الأغاني: كنا نعبث بها في الحدَاثة]، ويأتي برُذال شعرنا وما لم نُرد به الجدّ؟..."[148].

وشاهدُنا من كل هذا أن مكانة بشار الشعرية كانت معروفة ومُقدّرة لدى النقاد القدامى. ويكفي من هذه المعرفة وهذا التقدير أنهم وصفوه بأنه رأس المحدثين، وأستاذُهم، وأشعرُهم.

---

[144] الموشح، للمرزباني، ص290.

[145] نفسه. الشذرة: القطعة الصغيرة من الذهب.

[146] نفسه.

[147] نفسه. ص291.

[148] نفسه، ص288.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لكن أدونيس أراد أن يتميز ليُعْرَف، فاختار مخالفةَ كلِّ ما قاله القدامى، أو إغماضَ العين عنه، على الأصح، وسلوكَ سبيل آخر في الرؤية والقراءة والتحليل والتقدير.

لقد وجد أن القدامى، والمحدثين من المعاصرين أيضا، قد وفّوا شعر بشار حقه من التقدير والإنصاف-فلا أحد يستطيع أن ينكر ذلك ويزعم أن بشارا وأمثاله من المحدثين ظلوا متهمين ومتابعين ومهمشين، إلى آخر هذا الزعم الذي لا سند له من أي نوع- ولم يبق أمامه من طريق سالك إلا طريق "الابتداع"، والتأويل النظري، الذي يشارف، في بعض الأحيان، حدودَ الظن البعيد، والافتراض المستحيل.

فقد رجعَ أدونيس إلى المضامين الماجنة في شعر بشار يستنجدها، لصناعة مسوغ من مسوغات نظريته الحداثية، التي تنبني على مُسلَّمة قوامها أن الدائرة في الإبداع إنما هي على مخالفة الدين، بأصوله، وفروعه، وآدابه، وأخلاقه، وثقافته.

وكذلك فعلَ مع خمريات أبي نواس حين ذهب في فلسفة المجون كلَّ مذهب، وأغرقَ في التفسير والتأويل، إلى حدّ إضفاء صفات القداسة على الخمر، وإحلالِها، في القوة والقدرة على الصنع والتغيير، محل الله، تعالى الله وتقدس وتنزه.[149]

أما أبو تمام، فلم يكن عنده مضمون متميز، كما عند بشار وأبي نواس وأبي العلاء، مثلا، فأغلب شعره في المدح. ولما كان أبو تمام معدودا في رؤوس الشعراء المحدثين المبدعين، وكانت شهرُته قد أطبقت الآفاق، فإن أدونيس اجتهد على طريقته، ووفق أسلوبه الذي عايناه سابقا، في كثير من تحليلاته واستنتاجاته، لإيجاد مسوّغ ما

---

[149] الثابت والمتحول،(تأصيل الأصول)، ص109. تراجع مقالات أدونيس في هذا الموضوع في الفصل الرابع من القسم الثاني، الذي عنوانه: الإبداع والحداثة في الشعر: أبو نواس وأبو تمام.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لسلْكه في شعرائه المحدثين، الذين يصدّقون افتراضات نظريته الحداثية الجاهزة سلفا.

(4)

الإديولوجيا وصناعة المسوغات للأحكام الجاهزة

وهذا الاجتهاد، في الأسلوب الأدونيسي، لإيجاد المسوغات، وصناعة الأمثلة من الأفكار والرجال، لتوفير المصداقية "الموضوعية" لافتراضاته النظرية، أراه يتجلى في ثلاث صور على الأقل:

الصورة الأولى

كلُّ مضمون يمت بصلة قريبة أو بعيدة إلى الطعن على أصول الدين، وتدنيس عقائده، وتجاوز أحكامه وآدابه، والسخرية مِن رجالاته ومؤسساته، هو مضمون مقبولٌ يؤهل صاحبَه ليرتقيَ إلى مصاف الحداثيين الثوار، إن لم يكن إلى مصاف الطلائعيّين الأفذاذ.

يقول الوليد بن يزيد، مثلا، في كفر صريح وزندقة فاضحة:

يذكرني الحسابَ ولست أدري * أحقّ ما يقول عن الحســـاب

فقل لله يمنعني طعامـــــي * وقل لله يمنعني شرابـــــي.[150]

وقال يخاطب القرآن، وهو يهتك حرمته:

أتُوعد كـل جبّار عنيـــــد * فها أنا ذاك جبّار عنيـــــد

[150] ديوان الشعر العربي، مختارات أدونيس: 474/1.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إذا ما جئت ربك يوم حشر * فقل: يا ربّ، مزّقني الوليد.[151]

فماذا في هذا الاختيار الأدونيسي غيرُ الزندقة والإلحاد والجراءة على الله؟

أين هي الشاعريةُ، والفنية، والإبداعية، والجمالية في هذه الأبيات حتى تستحقَ أن تكون في مختارات أدونيس الشعرية الحداثية؟

وعندي نفس الملاحظة على قول إبراهيم بن هرمة:

أسأل الله سكرةً قبل موتـــي * وصياح الصبيان: يا سكــران![152]

فماذا هزّ أدونيس في هذا البيت حتى سجّله في مختاراته؟

فهل هناك شيء فنيٌّ ذو بال غيرُ لغة التحدي والوضوح في تمني فعل الحرام؟

ونفس الأسئلة أطرحها حين أقرأ قولَ أبي نواس:

أيها العاتب في الخمـــــــر متى صرت سفيهـا؟

لو أطعنا ذا عتـــــــاب * لأطعنا الله فيهـــــا.

فاصطبح كأس عقـــارٍ * يا نديمي، واسقنيهـا.

إنني عند ملام الـــــــناس فيها أشتهيهـــــــا.[153]

ويمكن الوقوف على أمثلة كثيرة من هذا القبيل في مختارات أدونيس في "ديوان الشعر العربي".

---

[151] نفسه: 475/1.

[152] نفسه: 36/2.

[153] نفسه: 78/2.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصورة الثانية

يعمد أدونيس، في استنباط كثير من تصوراته الحداثية، إلى نُتفٍ شعرية مِن هنا وهناك، وقد تكون النتفةُ عبارة عن بيت يتيم أو بيتين، ثم يتخذه سندا ومنطلقا للسبح في عوالم التأويل والتفكير والتنظير، ليرجعَ من رِحلته وقد أثبت لنظريته المثالَ المصدّق، ولافتراضاته مسوّغَ القبول.

من أمثلة ذلك بيتُ أبي تمام الذي يقول فيه:

لي في تركيبه بِـــدع * شغلت قلبي عن السنـــن[154]

فقد جاء به أدونيس مصداقا لقوله: "كان أبو تمام مأخوذا بالبدعة، أي بالخروج على كلّ سنة."[155] وتأمل ما وراء لفظة "كل" في كلامه.

ولو قرأنا البيتَ في سياق القطعة التي ورد فيها، لعرفنا أن معنى البيت لا يعدو دائرة المعاني، أو قلْ المبالغاتِ التي نجدها في التجارب الغزلية، والتي غالبا ما يُراد بها إبلاغ المشاعر وإبرازُ العواطف في صورة مطبوعة بالحرارة والعمق. وها هو ذا البيت المذكور في سياقه الأصلي:

لو تراه يا أبا الحســـن * قمرا أوفى على الغُصُـــنِ

قمرا ألقت جواهـــره * في فؤادي جوهر الحـــزنِ

كل جزء من محاسنـــه * فيه أجزاء من الفتـــــن

ليَ في تركيبه بـــدع * شغلت قلبي عن السنـن

---

[154] شرح ديوان أبي تمام، للخطيب التبريزي: 299/2.

[155] مقدمة للشعر العربي، ص44.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بأبي الأنصار من نفرٍ * نصروا سقمي على بدني.[156]

ومن الأمثلة التي يتشبث بها أدونيس كثيرا، في تأكيد افتراضاته الحداثية، قولُ أبي تمام عن الشعر:

والشعر فرجٌ ليست خصيصتــهُ * طول الليالي إلا لمفترعـــــه[157]

أسأل أولا: ماذا في هذا البيت من الشاعرية، وماذا فيه من التميز الإبداعي، حتى يكون أمارةً من أمارات الحداثة عند أبي تمام؟ بل-في رأيي-أين الذوق الأدبي، أصلا، في كلمات مثلِ "فرج" و"افترع"، حتى يكون البيتُ من مختارات أدونيس الشعرية؟

إن عند أدونيس اهتماما كبيرا بهذه النُّتف التي تظهر فيها علاقة الفعل الجنسي بالفعل الشعري، كقول أبي تمام من قصيدة مخاطبا الممدوح محمد بن عبد الملك الزيات:

أمّا القوافي فقد حصّنت عذرتها * فما يصاب دم منها ولا سلـــــبُ

منعت إلا من الأكفاء ناكحهـا * وكان منك عليها العطفُ والحـدب[158]

وكقوله من قصيدة في مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني:

عذارى قوافٍ كنت غير مدافعٍ*أبا عذرها لا ظلمَ ذاك ولا غصـبُ[159]

ولا يقف اهتمام أدونيس بمثل هذه الأبيات عند حدود خصائصها الشعرية، بل يتعداها إلى التأويل النظري الفلسفي، وذلك من أجل دعم بناء نظريته الحداثية.

---

156 شرح ديوان أبي تمام: 299/2.

157 نفسه: 413/1. وهذا البيت من قصيدة قالها في مدح الحسن بن وهب.

158 نفسه: 138/1.

159 نفسه: 110/1.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فمن تأويلاته التنظيرية، مثلا، أن "أبا تمام انطلق مِن أولية اللغة الشعرية"[160]، بخلاف أبي نواس، الذي "انطلق من أولية التجربة"[161]. "كان يريد أن يبدأ من كلمة أولى...ومن هنا إلحاحُه الدائم على أن القصيدة تكون عذرية أو لا تكون[162]، حتى إنه يشبّهُ إبداعَ الشعر، أيْ خلقَ العالم باللغة، بخلقه جنسيا-بالفعل الجنسي...ويعني أبو تمام بالعذرية أن شعره ابتكار لا على مثال، ولذلك يمتنع مثله على غيره. ومن هنا يخدع الآخرين، فهو بسيط بساطة الخلق الإلهي، لكنه صعب إلا على الخالق، لا من حيث إبداعه وحسب، بل من حيث تذوقه كذلك."[163]

ويمضي في السياق نفسه مستطردا: "فكما أن الكلمة بداية، يريد أن يكون ما يطابقها في العالم أو الطبيعة بداية هو كذلك. فالكلمة العذراء تقتضي شيئا بكرا. ثمة تطابق بين بكارة الكلمة وبكارة العالم. والشعر هو التطابق أو زواج الكلمة البكر بالعالم البكر. هذا الزواج اتحاد حيوي من جهة، وتحويلي من جهة ثانية. الكلمة إذن لا

---

160 الثابت والمتحول،(تأصيل الأصول)، ص115.

161 نفسه.

162 هذا المذهب الذي يذهبه أدونيس وغيره من الحداثيين في محاولة إقرار الأولية الإبداعية لأبي تمام، ليس مذهبا جديدا. ففي الصراع الذي كان دائرا بين أنصار أبي تمام وأنصار البحتري، كان أنصار أبي تمام يحتجون لصاحبهم بأنه "انفرد بمذهب اخترعه، وصار فيه أولا وإماما متبوعا، وشُهر به حتى قيل: هذا مذهب أبي تمام، وطريقة أبي تمام، وسلك الناس نهجه، واقتفوا أثره،..."(الموازنة، للآمدي، ص16.)
وقد ذهب أصحاب البحتري في نقض حجة خصومهم إلى أن أبا تمام لم يكن مبتدئا في مذهبه الشعري، وإنما كان ينسج على منوال سُبق إليه.(اقرأ تفصيلات احتجاج كل فريق لصاحبه في: "الموازنة"، للآمدي، من ص12 إلى ص51.)

163 نفسه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تعكس أشياء العالم، بل تعيد خلقها. إنها تخلق العالم على طريقتها، مجازيا."[164] إلى آخر ما سطره أدونيس، وما استنبطه من تأويلات وتنظيرات.

ونترك الدكتور محمد بنيس، وهو من الأدباء الذين تتلمذوا طويلا لأدونيس، ينوب عنا في التعليق على هذا المنحى عند أدونيس؛ يقول: "...يصعب علينا التسرعُ في رفع أبيات مفردة إلى مستوى نظري، لما تشترطه النظريةُ من مقومات، فضلا عن كون أبي تمام لم يخرج كلية عن الأرضية المعرفية التي كانت تُسيِّج ممارستَه الشعرية ومفهوم قراءتنا لها."[165]

ومثال آخر أن أدونيس حين يعثر في شعر أبي نواس، على مثل قوله في شطر بيت: "ديني لنفسي ودينُ الناس للناس"، فكأنما وقع على جوهرة لا تُقدر بثمن، فإنه يبتدره ابتدارا، ويفهمه ويؤوله على الوجه الذي يفتل في حبل نظريتِه الحداثية الإلحادية، ويناسب قسمات الصورة المرسومة.

فلنقرأ أولا، الشطر الشعري المذكور في سياق القطعةِ التي ورد فيها. يقول أبو نواس في هذه القطعة:

إني عشقت، وهل في العشق مِن بـاسِ
ما مر مثل الهوى شيءٌ على راسِـــي

ما لي وللناس، كم يلحونني سفـــــــهًا
ديني لنفسي ودين الناس للنــاس

ما للعداة، إذا ما زرت مالكتـــــــــي
كأن أوجههم تُطلى بأنقـــــــاسِ*

---

[164] نفسه، ص116.

[165] الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاتها: 3/100،99.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الله يعلمُ ما تركي زيارتكـــــــــــــمْ

إلا مخافة أعدائي وحرّاســـــــــي

ولو قدرنا على الإتيان جئتكـــــــــــــمُ

سعيا على الوجه أو مشيا على الــراسِ

وقد قرأت كتابا من صحائفكـمْ***لا يرحم الله إلا راحمَ النّـــاسِ.[166]

فالشطر المعلوم "ديني لنفسي ودينُ الناس للناس"، في سياق القطعة، لا يشي بأي نوع من أنواع الفلسفة، وبالأحرى فلسفة الإلحاد والتطاول على الله. فالأبيات تدور حول موضوع مطروق في شعر الغزل والمجون إلى حدّ الابتذال، وليس هناك إلا ما يتفاضل به الشعراء في تشبيهاتهم واستعاراتهم واختيار ألفاظهم. ومعنى الشطر الذي يعنينا، كما أفهمه في السياق الذي ورد فيه، لا يعدو أن يكون ردا على من يعيبون عليه وقوعَه في العشق، وكأنه يقول لهم: إن كان علي في هذا الذي أنا فيه من الهوى ذنبٌ، فهو ذنبي أنا، وأنا الذي سأتحمل وزرَه، وكلٌّ مأخوذٌ بعمله، إن أصلحَ فلنفسه، وإن أساء فعليها. في جملة، كأنه يقول لهم: لا شأن للناس بما أنا فيه، لأن كل نفس مرهونة بما كسبت، وأنه "لا تزر وازرة وزر أخرى".

وإن كان هناك فهمٌ آخر مغاير لهذا الفهم، فلن يصل، على أية حال، ومهما كانت غرابتُه، إلى اعتبار الشطر المذكور فلسفةً يعلن من خلالها أبو نواس انفصالَه "عن المفهوم السائد لله"، كما يزعم أدونيس في فهمه. وكيف يكون هذا الفهم مقبولا والشاعرُ الماجن العابث يذكرُ الله مرّتين في القطعة نفسها. ولا يهم إن كان قد ذكرَه مؤمنا صادقا، أو عابثا ساخرا، أو جاهلا غافلا على طريقة العوام في معاملاتهم ومحادثاتهم. المهم هو أن ما ذهب إليه أدونيس بعيدٌ

---

[166] ديوان أبي نواس، ص311. * الأنقاس= ج نِقْس وهو المداد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عن ظاهر لفظ عبارة الشطر الشعري وباطنها بُعْدَ أبي نواس عن فلسفة الإلحاد وانتهاك حرمات الله.

يقول أدونيس عارضا فهمَه وتأويله: "وحين يعلن أبو نواس قائلا: "ديني لنفسي ودين الناس للناس"، لا ينفصل عن المفهوم السائد للدين، وحسب، وإنما ينفصل كذلك عن المفهوم السائد لله."[167]

ويضيف، مستطردا في عبارات لا ترعى حرمةً لله ولا لمقدسات المسلمين، وفي جراءة إلحادية لا تساويها جراءة: "غير أن التساويَ بالله يقود إلى نفيه أو قتله[أقول: ما علاقة هذا الكلام بالشطر الشعري؟]. فهذا التساوي-دائما مع كلام أدونيس-يتضمن رفضَ العالم كما هو، أو كما نظمه اللهُ. والرفض هنا يقف عند حدود هدمِه، ولا يتجاوزه إلى إعادة بنائه. ومن هنا كان بناءُ عالم جديد يقتضي قتلَ الله نفسه، مبدأ العالم القديم. بتعبير آخر، لا يمكن الارتفاعُ إلى مستوى الله إلا بأن نهدم صورةَ العالم الراهن. وقتلُ الله نفسه، مبدأ هذه الصورة، هو الذي يسمح لنا بخلق عالم آخر. ذلك أن الإنسان لا يقدر أن يخلق إلا إذا كانت له سلطتُه الكاملة، ولا تكون له هذه السلطة إلا إذا قتل الكائنَ الذي سلبَه إياها، أعني اللهَ. وبهذا المعنى نفهم كلمة (ساد)[لاحظ كيف يخونه قلمُه فيصرّح، من غير أن يقصد، بالمصادر الحقيقية لتحليلاته وإسقاطاته وفلسفتِه الإلحادية]، التي تقول ما معناه أن فكرةَ الله هي الخطأ الوحيد الذي لا يستطيع أن يغتفره للإنسان، لأنه بخلقه هذه الفكرةَ[لاحظ مؤدى هذه الفلسفة: الله فكرةٌ خلقها الإنسان] رضي بأن يكون لا شيء إزاء الله الذي هو كلُّ شيء. كذلك نفهم قتل الله عند (نيتشه) [وهذا مصدر آخر لهذه الفلسفة الإلحادية]."[168]

---

[167] الثابت والمتحول(تأصيل الأصول)، ص113.

[168] نفسه. الإضافات بين القوسين المركنين من عندي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويقول في موضع آخر عن أبي نواس، محتفيا، دائما، بهذه الجوهرة التي عثر عليها في شعره: "كانت صرخته الأولى "ديني لنفسي". هذه نفسها صرخة العالم الحديث منذ (بودلير)[وهذا مصدر آخر من مصادر الفلسفة الحداثية الأدونيسية]. أبو نواس بودلير العرب."[169]

الصورة الثالثة

وهذه الصورة لا تختلف عن الصورة السابقة إلا في المادة المعتمدة. فأدونيس، في الصورة السابقة، يعتمد مادة الشعر، وفي هذه الصورة يعتمد مادة النثر، أخبارا وروايات وقصصا وغيرها.

فقول أبي العتاهية مثلا: "أنا أكبر من العروض"، ردّاً على مَن سأله: هل تعرف العروض؟[170]- هذا القول استنتج منه أدونيس، وفق نظريته المقررة سلفا، أن من صفات الحداثة الشعرية ومبادئها تجاوزَ ما قرره القدامى من بحور وأوزان وإيقاعات، ومحاولةَ "ابتكار إيقاعات وأوزان شعرية لم يألفها العربُ سابقا."[171]

وواضح أن استنتاجاتِ أدونيس في واد وقولَ أبي العتاهية في واد آخر، في المضمون البعيد على الأقل، ذلك أن شعرَ أبي العتاهية كلَّه يشهد أن الرجلَ لم يخرج عن أصول أوزان الشعر العربي، وإن كان "له أوزان طريفة قالها مما لم يتقدمه الأوائلُ فيها."[172]فأصولُ هذه الأوزان التي لم يُسبق إليها ترجع إلى وحدات صوتية متساوية في الزمان والمقدار، مؤلفة، باصطلاح العروضيين، من أسباب

---

169 مقدمة للشعر العربي، ص47.

170 قال محمد بن أبي العتاهية: سئل أبي: هل تعرف العروض؟ فقال: أنا أكبر من العروض. وله أوزان لا تدخل في العروض.(الأغاني: 13/4.)

171 الشعر العربي ومشكلة التجديد، مجلة "شعر"، ص91.

172 الأغاني: 2/4.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأوتاد. فليس على الشاعر حرجٌ إن هو اخترع أوزانا جديدة، كما حُكي عن أبي العتاهية، لكن قائمة على هذا الأصل الموسيقي، الذي إن زال سقطت معه صفةُ الوزن عن الكلام. ثُم إن الشاعر "المطبوع مستغن بطبعه عن معرفة الأوزان، وأسمائها، وعللها، لنبوّ ذوقه عن المزَاحف منها والمستكره. والضعيف الطبع محتاج إلى معرفة شيء من ذلك[أي علم العروض] يعينه على ما يحاوله من هذا الشأن."[173]

أما أن يُفهم من عبارة أبي العتاهية أن الرجل لم يكن يعبأ بهذا الأصول، وأن اختراعاته شيء جديد غيرُ مألوف، ففيه بعد وتكلف في التأويل. نقول هذا ونحن نستحضر في ذهننا أن من مبادئ الحداثيّة الأدونيسية أن "شكل القصيدة الحديثة هو وحدتها العضوية...قبل أن يكون إيقاعا أو وزنا"[174]، وأن "تحديد الشعر بالوزن تحديد خارجي سطحي، قد يناقض الشعر."[175]

(5)

مثالان آخران على الصورة الثالثة

وهذان مثالان آخران على الصورة الثالثة، التي تحدثنا عنها في الفقرة الرابعة السابقة.

المثال الأول

لقد عرفنا أن علماءَ الشعر من الأدباء والنقاد قد جعلوا بشّارا على رأس المطبوعين، وشهدوا له بالأستاذية في الشعر المحدث،

---

[173] العمدة: 134/1.

[174] محاولة في تعريف الشعر الحديث، مجلة "شعر"، ص84.

[175] نفسه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ووصفوا شعرَه بأنه كان "أنقى من الراحة، وأصفى من الزجاجة، وأسلسَ على اللسان من الماء العذب."[176]وما تركوا وصفا، في حدود علمي واطلاعي، يمت إلى جمالية الإبداع بصلة إلا ووصفوه به.

وقد روت بعضُ المصادر حوارا، هو عبارة عن سؤال من بعض الناس وجوابٍ مِن بشار لخّص فيه، بعبارته وأسلوبه، ما شهد له به العلماءُ في شعره من طبع، وصفاء، ورفعة، وحسن إبداع واختراع. وها هو ذا نص الرواية:

"قيل لبشار بن برد: بم فُقت أهلَ عمرك، وسبقت أهلَ عصرك، في حسن معاني الشعر، وتهذيب ألفاظه؟ فقال: لأني لم أقبل كلَّ ما تورده عليّ قريحتي، ويناجيني به طبعي، ويبعثه فكري، ونظرتُ إلى مغارس الفطن، ومعادن الحقائق، ولطائف التشبيهات، فسرت إليها بفهم جيد، وغريزة قوية، فأحكمتُ سبْرها، وانتقيت حرّها، وكشفت عن حقائقها، واحترزت من متكلّفها. ولا، والله ما ملَك قيادي الإعجابُ بشيء مما آتي به."[177]

وقد استند أدونيس إلى هذا الجوابِ المنسوب إلى بشار في هذه الرواية، ليبنيَ نظريةً شعرية حداثيّةً مكتملةً، جعلَ على رأسها بشارا، وذلك حين وصفه بأنه "أولُّ من "وصف"، على الصعيد الفني، التحولَ في الحساسية الشعرية العربية."[178]

ومن علامات هذا التحول التي استخلصها أدونيس من جواب بشار" أن الشعر صار فنا"[179]، "وصار نظرا إلى الحقائق، أي صار

---

176 طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص28.

177 "زهر الآداب وثمر الألباب"، لإبراهيم الحصري: 1/ص151، و"العمدة"، لابن رشيق: 2/ص239.

178 مقدمة للشعر العربي، ص41.

179 نفسه، ص42.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

موقفا"[180]، وأصبح له "باعتباره فنا، خاصية جوهرية هي التجاوز المستمر والتطلع إلى آفاق أكثر اتساعا وجدة..."[181].

ويضيف أدونيس، في استنتاجاته، "أن بشارا يتناول في جوابه أصوليةَ الشعر العربي؛ إنه يزعزع مفهومَ الطريقة الشعرية الموروثة، ويشكك في ثباتها."[182]

يستنتج أدونيس من الجواب المنسوب إلى بشار "أن الشعر صار فنا". وهذا يعني أن الشعر، قبل بشار، لم يكن فنا؟ إذاً، كان ماذا؟ ماذا كان الشعر الذي اختاره أدونيس نفسُه لشعراء عاشوا قبل بشار بقرون؟

وبعبارة أوضح، هل للشعر جوهرٌ قبليٌّ مطلق، لا علاقة له بالألفاظ، والعبارات، والأوزان، والاستعارات، والتشبيهات، وغيرها من مواد صناعة الشعر؟

ولنتأملْ مرة أخرى قولَ بشار في نهاية جوابه: "ولا، والله ما ملَك قيادي الإعجابُ بشيء ممّا آتي به."

فهذا الكلام، عند أدونيس، لا يعني إلا "التجاوز المستمر"، لكن التجاوز بالمفهوم الحداثي، الذي قوامُه اللانهاية، واللاوصول، واللاتشكل، واللاحدود،...إلى آخر لاءات الحداثية الرفضيّة الهدميّة.

وهذه الاستخلاصاتُ الأدونيسية، في رأيي، لا تخلو من إسقاطات تُلغي عاملَيْ الزمن والبيئة الاجتماعية والأدبية في النقد والتقويم، حين تحاول أن تنسبَ شعراءَ عاشوا في القرن السابع الميلادي أو قبله، أو بعده، لمفهومٍ للشعر وُلد في القرن العشرين،

---

180 نفسه.

181 نفسه.

182 نفسه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكلُّ ذلك بسبب شذرات شعرية تظهر "عادية" لو أنها وُزنت بميزان عصرها، واعتُبر في نقدها واقعُ الظروف الأدبية، والعلمية، والاجتماعية، التي أحاطت بالشعراء المحدثين، فضلا عن روح العصر العام، الذي كان يشترك الجميع في استنشاق هوائه، سواء في ذلك الأدباء، والنقاد، والشعراء، والخطباء، والعلماء من مختلف التخصصات والمشارب والمذاهب.

فالفهم الموضوعي الصحيح كان يقتضي استحضارَ المعطيات التاريخية، وكذلك مختلف المعطيات البيئية، الاجتماعية والذاتية والسياسية والعلمية والأدبية والنقدية، عوض ردّ النقد الذي كان سائدا على عهد أبي نواس وأبي تمام، مثلا، وتشبيهه، بمنظار الفلسفة العقلانية اللادينية، بالسلوك الفقهي التفسيري تجاه القرآن، الذي كان يستغني بالظاهر عن التأويل.[183]

وفي رأيي أن الحداثيّين، بمنهجهم الإسقاطي هذا، وبجنوحهم عن ميزان الواقع والاعتدال، قد فاتهم الفهمُ الصحيح والتقييم المُنصف.

المثال الثاني

لقد شغل أبو تمام الدنيا بشعره، حتى كان الناس في أمره فريقين: "مَن يتعصب له فيُفْرط، حتى يفضله على كل سالف وخالف، وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه، ويطوون محاسنه، ويستعملون القِحَةَ[الوقاحة] والمكابرة في ذلك...والتوسطُ في كل شيء أجملُ، والحق أحقُّ أن يتبع."[184]

---

[183] الثابت والمتحول،(تأصيل الأصول)، ص118.

[184] الأغاني: 383/16. راجع بعض التفصيلات عن الخصومات التي دارت حول أبي تمام في كتاب "الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام"، للدكتور عبد الفتاح

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد انقشع ضبابُ هذه الخصومات التي دارت حول أبي تمام عن رسوخ مكانته الشعرية، واعترافٍ بموهبته الإبداعية، التي أغنت التجربةَ الشعرية العربية. وقد ترددت أصداء شهرة الرجل خارج الأوساط الأدبية المتخصصة، حتى وجدنا الحافظَ الذهبي- وهو من كبار نقاد الرجال- يشهد بأن "شعره في الذروة"[185].

ومن الروايات التي تُروى في هذا المنحى أن عمارة بن عقيل[186] حل ذات مرة ببغداد، فأقبل الناسُ يريدون معرفةَ رأيه في شاعرية أبي تمام، فأنشدوه من قصيدته التي مطلعُها:

غدت تستجير الدمعَ خوفَ نوى غد * وعاد قتادا عندها كلُّ مرْقَدِ[187]

ولم يزل يستزيدهم منها حتى بلغوا قولَه:

وطول مقام المرء بالحي مخلـقٌ * لديباجتيه، فاغتربْ تتجـــــــدّدِ

فإني رأيت الشمس زيدت محبة * إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدِ

لاشين. وراجع عن أبي تمام عموما كتاب "الموازنة"، للآمدي، وكتاب "أخبار أبي تمام"، لأبي بكر الصولي، وكتاب "أبو تمام، حياته وحياة شعره"، للدكتور نجيب محمد البهبيتي.

[185] سير أعلام النبلاء: 64/11.

[186] شاعر فصيح كان يسكن بادية البصرة، ويفد على خلفاء الدولة العباسية في بغداد(...) "والعلماء يقولون: جاء عمارة بن عقيل على ساقة الشعراء"(أخبار أبي تمام، ص63).

[187] شرح ديوان أبي تمام، للخطيب التبريزي: 245/1 وما بعدها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

"فقال عمارة: كمل والله، فإن كان الشعر بجودة اللفظ، وحسن المعاني، واطراد المراد، واستواء الكلام، فصاحبُكم هذا أشعرُ الناس، وإن كان بغيره، فلا أدري."[188]

وقال مرة أخرى [أي عمارة بن عقيل]، بعد أن سمع رائيتَه التي نظمها في مدح المعتصم وهجو الأفشين-كان من كبار قواد المعتصم-، والتي مطلعُها:

الحق أبلج والسيوف عــوار * فحذار من أسد العرين حـــذار[189]

"لله درّه، لقد وجد ما أضلته الشعراءُ، حتى كأنه كان مخبوءا له."[190]

ويكفي أبا تمام اعترافا بتقدمه وأستاذيته شهادةُ شاعر كالبحتري؛ فقد رُوي أنه قيل له، في مجلس، وقد ذُكر معنى تعاوره هو وأبو تمام: "أنت في هذا أشعرُ من أبي تمام، فقال: كلا، والله ذاك الرئيس الأستاذ، والله ما أكلت الخبز إلا به..."[191]

وليس قصدنا هنا أن نحصيَ أو أن نحصر ما قيل في فضل أبي تمام وتقدمه وأستاذيته، وإنما قصدُنا أن نشير إلى أن النقاد المتقدمين لم يتركوا للمتأخرين كبيرَ شيء في شأن موضوع شاعرية أبي تمام وسبقه وتبريزه على سائر شعراء عصره، بما ابتدعه من أساليب في التعبير والتصوير، وما اتبعه في شعره من طرائق تمتاز بالغرابة والاختراع.

---

[188] أخبار أبي تمام، لأبي بكر الصولي، ص59-61. قارن برواية "الأغاني": 385/16. يراجع "ما جاء في تفضيل أبي تمام" في "أخبار الصولي"، بدءا من ص59.

[189] شرح ديوان أبي تمام: 335/1.

[190] أخبار أبي تمام، ص96.

[191] نفسه، ص67.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا شك أن أدونيس كان يعرف هذا، وكان يعرف أيضا أن مِن المؤاخذات الرئيسية التي سجلها النقادُ على شعر أبي تمام-ونقصد النقادَ من أهل العلم والإنصاف والاختصاص، وليس النقاد من أهل الحسد والعداوة والاضطغان-ذهابَه في الإغراب إلى حدّ الاستغلاق في بعض الأحيان، وإسرافَه في الاستعارات البعيدة، مما قد يتولد معه، لدى المتلقي، انعدامُ الفهم أو صعوبتُه. ولقد وصلتنا شهاداتٌ عديدة من نقاد كبار على هذه الخلّة في شعر أبي تمام، كالمرزوقي، والآمدي، والقاضي الجرجاني، وعبد القاهر الجرجاني، والمرزباني.

ومهما كانت قوةُ دفاعات أصحاب أبي تمام، فإنه لا يمكنهم أن يدفعوا نقدَ أهل الاختصاص من نقاد الشعر وعلماء البلاغة والبيان، وخاصة إن كان هذا النقد قائما على التعليل العلمي الرصين والتحليل الفني الأدبي المتين، وأقصد هنا، بالتحديد، نقدَ رجل كعبد القاهر الجرجاني، الذي لم يملك الحداثيون أنفسُهم إلا أن يعترفوا له بالمكانة النقدية المتميزة التي احتلها في تاريخنا الأدبي النقدي، وخاصة في مضمار النقد البلاغي. وها هو أدونيس نفسُه يشهد لعبد القاهر الجرجاني بالسبق والريادة في تعرّف شعرية النص، "ليس بالقياس إلى النقد العربي القديم وحسب، وإنما بالقياس أيضا إلى النقد الشعري الحديث في العالم الحديث."[192]

ومن الأمثلة التي يسوقها عبد القادر الجرجاني في هذا الصدد "ما تجده لأبي تمام من تعسفه في اللفظ، وذهابه به في نحوٍ من التركيب لا يهتدي النحوُ إلى إصلاحه، وإغرابٍ في الترتيب يعمىَ الإعرابُ في طريقه ويضل في تعريفه، كقوله:

---

[192] الثابت والمتحول،(صدمة الحداثة)، ص296. انظر أيضا: "الشعرية العربية، ص44-50.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ثانيه في كبد السماء ولم تكــن * لاثنين ثانٍ إذ هما في الغـــار[193]

وقوله:

يدي لمن شاء رهْنٌ لم يذق جُرَعا * من راحيتك درى ما الصاب والعسل[194"195]

ومن مطالعه التي استبشعوها قوله يمدح محمد بن حسان الضبي:

قدْك اتّئبْ أَرْبيت في الغُلــواء * كم تعذلون وأنتمُ سُجَرَائـــي[196]

وقوله يمدح إسحاق بن إبراهيم:

خَشُنْت عليه أخت بني خُشَيــنِ * وأنجح فيك قول العاذليــن.[197]

وقد استبشعوا أيضا استعمالَه للغريب، كقوله في وصف ظبية:

---

[193] شرح ديوان أبي تمام، للخطيب التبريزي: 340/1. والبيت من قصيدة في مدح المعتصم وهجو الأفشين، وقد سبقت الإشارة إليها.

[194] نفسه: 8/2. اقرأ في هذا المصدر اختلاف الناس في قراءة هذا البيت وتفسيره. والبيت من قصيدة مدحية مطلعها:

فحواك عينٌ على نجواك يا مـذِل * حتّام لا يتقضّى قولك الخطِـلُ

المذل: الذي لا يكتم سره.

[195] أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، ص121،122. راجع أمثلة أخرى على بعيد الاستعارات التي انتقدوها على شعر أبي تمام، في "الموازنة"، للآمدي، ص227 وما بعدها.

[196] شرح ديوان أبي تمام: 22/1. وانظر أيضا: "الموشح"، ص344. قدْك: حسبك. اتئب: استحي. سجرائي: واحد سجير، وهو الصديق.

[197] نفسه: 150/2.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تقرو بأسفله رُبُولاً غضـــة * وتقيل أعلاه كِناسا فَوْلَفـــا[198]

وقوله يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف من قصيدة مطلعها:

أطلالهم سلَبَت دُماها الهِيفـــا * واستبدلت وحشاً بهن عكوفـــا[199]

فإذا مشى يمشي الدِّفَقّـَى أو سَرى * وصَلَ السُّرَى أو سار سار وجِيفا[200]

وقال المرزباني، بعد أن ساق أمثلةً على الغريب المستعمل في شعر أبي تمام: "ولم نَعِب من هذه الألفاظ شيئا، غير أنها من الغريب المصدود عنه...لأنها لا تُجاور بأمثالها، فكأنها تشكو الغربةَ في كلامهم."[201]

وغايتُنا من هذه الإشارات وهذه الأمثلة أن أبا تمام، كسائر شعراء الدنيا، كانت له كبواته. فلم يكن معصوما من الخطأ[202]، وأن

---

198 نفسه: 395/2. انظر أيضا: "الموشح"، ص350. تقرو: تتتبّع. رُبُول: جمع رَبْل وهو ورق يتفطّر به الشجر إذا برد عليه الليل في آخر الصيف. الفولف: أصله صوان تحفظ به الثياب، وفي رواية "أجوفا" مكان "فولفا".

199 نفسه: 426/1.

200 نفسه: 428/2. انظر "الموشح"، ص350. الدِّفَقَّى: مشى الدّفقّى أي مشى مُسرعا كأنه يتدفق. الوجيف: ضرب من السير السريع، وهو دون التقريب.

201 الموشح، ص351. راجع أمثلة من مؤاخذات العلماء النقاد على أبي تمام في هذا المصدر، ص343 وما بعدها، وفي "الموازنة" للآمدي، ص227 وما بعدها، وص258 وما بعدها.

202 "قال عبد الله بن المعتز في رسالة نبه فيها على محاسن شعر أبي تمام ومساويه: ...فأما قولنا فيه فإنه بلغ غايات الإساءة والإحسان، فكأن شعره قولُه [أي قول أبي تمام]:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العلماءَ، وإن كان منهم المتعصبون العُمي المُجرّدون من قيم العدل والإنصاف، فقد كان منهم أيضا، النقادُ العارفون، الذين التزموا حدودَ النقد الشعري بمقاييسه الفنية واللغوية والأسلوبية البيانية المعتبرة.

وشاهدُنا في هذا المثال أن أدونيس لم يجد مِن مدخل لإلحاق أبي تمام، وهو مَن هو في الشاعرية والشهرة، بشعرائه المختارين لتصديق نظريته الحداثية-لم يجدْ إلا مدخلَ المؤاخذات التي سجلها عليه النقادُ، وخاصة ما تعلق منها ببعيد الاستعارات وما تؤدي إليه مِن استغلاق العبارة واستبهام المعنى.

(6)

أبو تمام كما أراده أدونيس

لقد خالف أدونيس جميعَ النقاد القدامى حين رأى أن التعقيد والغرابة في شعر أبي تمام إنما مرجعها إلى شاعريته المبدعة المبتدئة، التي استطاعت أن تعطيَ "الكلمة معنى لم يكن لها"[203]، وتحل "احتماليةَ المعنى محل يقينيّته"[204]. يقول أدونيس: "لقد خلق أبو تمام لغة تغاير لغةَ الحياة اليومية ولغة الحياة الشعرية السائدة. هكذا جاءت معانيه مغايرة للمعاني المألوفة، وجاءت صوره وتعابيره مغايرةً للمألوف كذلك، ومن هنا غموضه."[205]

إن كان وجهك لي تثْرى محاسنُـه * فإن فعلَك بي تثْرى مساويـه."

(الموشح، ص346،347. والبيت في شرح ديوان أبي تمام: 335/2.)

[203] الثابت والمتحول،(تأصيل الأصول)، ص118.

[204] نفسه.

[205] مقدمة للشعر العربي، ص45.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونلاحظ، فيما كتبه أدونيس عن أبي تمام، عظمَ الهالة التي حاول نسجَها حول شعره لإثبات إبداعيته وأوليته[206]، وإلا فإن الأمر لا يعدو، فيما نستنتجه من مقالات النقاد واحتجاجات الخصوم والأنصار، فضلا عن شعر الشاعر-وهو شاهد حيّ-لا يعدو بضعَ استعارات وتراكيب وصور أغرب فيها الرجلُ، وخرج على المألوف. وقد وقف النقاد القدامى عند ذلك وبينوه بين مستحسن ومستقبح، ومنتقص ومؤول.

ولسنا نستغرب-والحالة هذه-أن يوجد بين معاصري أبي تمام مَن يستصعب بعضَ أشعاره، ومَن يشقّ عليه فهمُ بعض استعاراته، ومَن يستبشع بعضَ ألفاظه وعباراته.

وكذلك لا نستغرب أن يوجد بين هؤلاء-وقد كان فيهم علماء بالشعر وشعراء وغيرهم من الأدباء-مَن يعنّ له أن يسأل أبا تمام: "لمَ لا تقول من الشعر ما يُعرف؟"، فيجيبه أبو تمام، مدافعا عن نفسه :"وأنت لمَ لا تعرف مِن الشعر ما يُقال."[207]

---

[206] لقد وصل في ذلك إلى درجة مدح القافية في شعر أبي تمام-وهي من مكونات البناء الشعري التقليدي/الاتباعي عند الحداثيين-حيث جعلها مظهرا من مظاهر إبداعيته. وهذا هو حال عين الرضا دائما؛ فأبو تمام شاعر "حداثي"، إذاً، يجب أن تكون القافية في شعره ممدوحة، وكذلك الشكل البنائي الشعري عامة. انظر تفصيل= =مقالة أدونيس في هذا الشأن في "الثابت والمتحول،(تأصيل الأصول)"، ص117 وما بعدها.

[207] أخبار أبي تمام، لأبي بكر الصولي، ص72. قيل: إن السائل هو "أبو سعيد الضريرُ بخراسان، وكان هذا من علماء الناس"(نفسه). ورواية ابن رشيق في العمدة بلفظ "ما يفهم" بدل "ما يعرف"، وفي الجواب بلفظ "لا تفهم" بدل "لا تعرف"(العمدة:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كما لا نستغرب أن يسوق أبو بكر الصولي هذه الحكايةَ في سياق "ما جاء في تفضيل أبي تمام"، عامة، وفي سرعة بديهته بصفة خاصة.

لا نستغرب كلَّ هذه، وإنما المستغربُ، عندي، هو أن يبتدر أدونيس وأمثاله من الحداثيّين هذا الجوابَ، وكأنهم وقعوا على ثمرة الغراب، ويركبوا متنَه لبناء نظرية في التلقي الشعري تصدّق الافتراضاتِ الحداثية، فحواها أن "على القارئ أن يرقى إلى مستوى الشاعر، وليس على الشاعر أن يقدم للقارئ أفكارا بأسلوب يعرفه الجميع. هذا يعني أن للشاعر لغةً خاصة غير لغة الجمهور، مثقفين وغير مثقفين."[208]

وهذا الاستنتاج المتسرع يفيد، من بين ما يفيده، أن أبا تمام لا يمكن أن يخطئ، وأن شعرَه كلَّه ممدوح لا مطعن فيه لأحد على شعريته إبداعا، ولغة، وتصويرا، وتخييلا، وأسلوبا، وأن المخطئ والناقص والمطعون عليه هو المتلقي دائما، لِـ"أن القارئ الحقيقي، كالشاعر الحقيقي، لا يُعنى بموضوع القصيدة، وإنما يُعنى بحضورها أمامه كشكل تعبيري، أعني صيغة الرؤيا."[209]

ويظهر أدونيس في هذا الكلام وكأنه يتحدث عن مسلَّمات وحقائق مطلقة ونهائية.

وهكذا، ووفق هذه النظرية الحداثية في التلقي، يوجب أدونيس "على القارئ الجديد أن يتوقف عن طرح السؤال القديم: ما معنى

133/1). ويروى أن هذه الحكاية [لم تكن مع أبي تمام وإنما] كانت مع أبي العَمَيثل وصاحبين له خاطباه فأجابهما."(نفسه)

[208] مقدمة للشعر العربي، ص43.

[209] زمن الشعر، لأدونيس، ص72.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذه القصيدة، وما موضوعها؟..."[210]، لأن "الإصرار على أولية الموضوع، أي على وظيفة الشعر، إنما هي نفي للشعر."[211]

ومثلُ هذا الكلام، في رأيي، لا يتعدى دائرةَ الدَّعاوى والافتراضات، لكن أدونيس، على طريقته، دائما، في التحليل والاستنتاج، يسوقه مساق الحقائق الثابتة والمسلمات النهائية.

فرؤية أدونيس هاته إلى شعر أبي تمام وتقييمه لشاعريته تخالف المعروفَ من شعر أبي تمام نفسه وأخباره، وآراءِ نقاد شعره من العلماء المنصفين. بل إن أبا تمام نفسَه يعترف بأن شعره لا يخلو من الرديء، فأحرى الغامضُ المستغلق. "قال مثقال الشاعر: قلت لأبي تمام: تقول الشعر الجيّدَ، ثم تقول البيت الرديء. فقال: مثلُ هذا مثلُ رجل له عشرة بنين منهم واحدٌ أعمى، فلا يحب أن يموت."[212]

وقد علّق المرزباني على ما جاء في جواب أبي تمام بقوله: "وهذه حُجة ضعيفة جدّا."[213]

---

210 نفسه.

211 نفسه. وبمنظار هذه النظرية الحداثية وصفت خالدة سعيد القارئَ العربي بأنه "كسول ينام على حرير الأمجاد والكشوف الماضية؛ رفع شعار "القناعة كنز"، واستراح عن طلب المغامرة في المجهول والمصيري. ترعبه فكرة العودة إلى البدء، إلى البراءة..."(حركية الإبداع، ص94). ولا يخفى ما في مثل هذا الكلام من ادعاء وتعالم وأستاذية ونظرة احتقار إلى القارئ العربي عموما.

212 الموشح، ص361.

213 نفسه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي نفس المعنى، قيل لأبي تمام: "تعمد إلى درّة فتلقيها في بحر خُرْءٍ، فمن يغوص عليها حتى يخرجَها غيرك؟"[214] كناية عن إغراقه وإغرابه في توليد المعاني.

ونرجع إلى قول أبي تمام: "ولم لا تعرف ما لا يقال؟" ردّا على سؤال السائل: "لم لا تقول ما يُعرف؟".

إن الذي أراه أن سائل أبي تمام-إن ثبتَ أن الحكاية كانت معه- لم يكن يقصد أن يُنكر جميعَ شعر أبي تمام، وإنما سؤالُه كان متعلقا بالأبيات المستغلقة والعبارات الغريبة الغامضة. وهذا سؤال، في رأينا، عادي وطبيعي. وإنما الغرابة في الجواب.

ورأيي أن القصةَ بكاملها إنما ساقها أبو بكر الصولي للانتصار لأبي تمام، وتبيان محاسِنه وصفاته الممدوحة، التي منها صفةُ سرعة البديهة. فالمقصود بجواب أبي تمام، أساسا، هو تبيان هذه الصفة، ولذلك عقّب الراوي بعد ذكر جواب أبي تمام بقوله: "فأفحَمه"، أي أفحمَ أبو تمام سائلَه. وفي رواية ابن رشيق: "ففضحه". وكأنّ أبا بكر الصولي أراد أن يقول، من خلال سوق هذه الحكاية، أن أبا تمام كان جوابُه، دائما، على حرف لسانه. ويقوّي هذا الفهمَ ما جاء في مقدمة الرواية مِن أن أبا تمام كان "إذا كلمه إنسانٌ أجابه قبل انقضاء كلامه، كأنه كان علِم ما يقول فأعدَّ جوابه."[215]

---

[214] نفسه، ص343.

[215] أخبار أبي تمام، ص72.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(7)

الغرابةُ الشعرية الممدوحة

أما الغرابةُ الشعرية الممدوحة عند النقاد، فهي شيءٌ آخرُ غير الاستغلاق والتعقيد، والمعنى الضائعِ في ظلام الشبهات.

فقد تكلم نقادُنا القدامى كثيرا على المعاني الشعرية اللطيفة، التي لا تُنال إلا بعد عناء وجهد، وجعلوها، في موازين الإبداع، مقدَّمَةً على المعاني المباشرة التي ينالها المتلقي من ظاهر الألفاظ من غير تعب.

وقد جعل عبد القاهر الجرجاني هذا النوع من المعاني "كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهَه حتى تستأذن عليه."[216]

ولا يخفى ما في عبارة الجرجاني مِن إشارة إلى الجهد الذي ينبغي أن يبذله المتلقي، وكذلك المعاناة التي ينبغي أن يعيشها قبل أن يظفر بطلبته.

ثم يزيد الأمر بيانا بأن الناس ليسوا جميعا في مستوى نيل هذا الجوهر، وإنما هو لمَن توافرت فيه الشروط المطلوبة. فَـ"ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كل أحد يفلح في شق الصدفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة، كما ليس من دنا من أبواب الملوك فتحت له..."[217]

فما كان من المعاني ألطفَ "كان امتناعه عليك أكثر، وإباؤه أظهر، واحتجابه أشد."[218]

---

[216] أسرار البلاغة، ص119.

[217] نفسه، ص119،120.

[218] نفسه، ص118.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويؤكد عبد القاهر الجرجاني هذه المقالة بأنَّ "من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى..."[219]

فها هنا دعوة واضحة للمتلقي إلى المشاركة بنوع من المجهود، من أجل الاستمتاع بالجوهر. فالشق، والعناء، والكشف، والفكر، والتعب، والمشقة، والمكابدة، والاجتهاد، والنصب، وأشباهها من الألفاظ المستعملة في هذا السياق، كلها تدل على مدى ما يتحمله المتلقي، من أجل المعنى اللطيف.

وللتصوير الشعري ضروب وفنون تتسع إلى غير حدّ[220]. فمنها "العامي" الذي يجري فيه الشاعر على المعروف المبتذل، ومنها "الخاصي، الذي يمتاز بالندرة والفرادة، والذي لا يكون إلا في "كلام الفحول، ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال..."[221]. ومنها ما "يفضي إلى ما تناله العيون"[222]، ومنها ما "يومئ إلى ما تمثله الظنون"[223].

وليس المقصود من هذه المعاناة والمكابدة "أن يكون التعقيد والتعمية وتعمّد ما يكسب المعنى غموضا مشرفا له وزائدا في فضله"[224]، وإنما المقصود منها "القدر الذي يحتاج إليه، في نحو قوله:

---

219 نفسه.

220 دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، ص52.

221 نفسه، ص58.

222 أسرار البلاغة، ص53.

223 نفسه.

224 نفسه، ص118.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

"فإن المسك بعض دم الغـــزال"

"...وقول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركـي * وإن خلت أن المنتأى عنك واسـع"

"...وقول البحتري:

ضحوك على الأبطال وهْو يروعهم * والسيف حدّ حـين يسطو ورونق"[225]

وأما إذا كنت مع المعنى "كالغائص في البحر يحتمل المشقة العظيمة، ويخاطر بالروح، ثم يخرج الخَرَز، فالأمر بالضد مما بدأت به. ولذلك كان أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يجدي عليك، ويؤرقك ثم لا يروق لك..."[226].

وقد استفاض عبد القاهر الجرجاني، بأسلوب في الفهم والتحليل لم يُسبق إليه، في ذكر فضائل التعبير المجازي بكل أشكاله وأنواعه، وحكى إجماع "الجميع على أن الكناية أبلغُ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلا، وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة."[227] كما أطال في تفصيل محاسن الاستعارة، وهي عماد التصوير الشعري، ومعدن المعاني اللطيفة، حيث وصفها، من بين ما وصفها به، بأنها "أمدّ ميدانا، وأشد افتنانا، وأكثر جريانا، وأعجب حسنا وإحسانا، وأوسع سعة، وأبعد غورا، وأذهب نجدا في الصناعة وغورا، من أن تجمع شعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها، نعم وأسحر سحرا..."[228] إلى آخر وصفه الطويل الذي يبين عن افتتان الجرجاني بالاستعارة، فضلا عن

---

[225] نفسه، ص118،119.

[226] نفسه، ص120.

[227] دلائل الإعجاز، ص55.

[228] أسرار البلاغة، ص32.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الإبانة عن المدى اللانهائي الذي يبسطه التعبير الاستعاري للشاعر المبدع.

ويذكر الجرجاني في هذا السياق أن من خصائص الاستعارة التي تذكر بها "وهي عنوان مناقبها: أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من الألفاظ، حتى تخرجَ من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجنيَ من الغصن الواحد أنواعا من الثمر...إن شئت أرتك المعانيَ اللطيفة التي هي من خبايا العقول كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانيةَ حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون..."[229].

وإنما حان مني هذا الاستطراد، وهذا الاستئناس بعبد القاهر الجرجاني في هذا المقام، لما أراه في الخطاب النقدي الحداثي مِن كثرة الحديث عن غوامض المعاني وغريب الصور الشعرية، وعن مشاركة المتلقي/القارئ ببذل الجهد لبلورة المعنى الشعري، وكأن الأمر هو من مُكتشَفات التجربة الحداثية. والحقيقة أن النقد العربي القديم-وعبد القاهر الجرجاني علمٌ بارز من أعلامه، بكتابيه المشهورين: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"-قد سبق إلى استكشاف هذه العوالم الأدبيةَ والشعرية فيما يشبه نظريةً متكاملة في الإبداع والتلقي. لكن هذه الاستكشافات النقدية كانت داخل حدود الفهم، لأن الخطاب الشعري، عندهم، إنما هو من أجل التعبير والتواصل مع الآخر. فلذلك ذمّوا الشعرَ الذي يجهد القارئ، ثم لا يكون وراء ذلك كبير معنى ولا فائدة. ومثل هذا الشعر، في بعض تشبيهات عبد القاهر الجرجاني، مثل "الذي لا يؤيسك من خيره في الأول فتستريحَ إلى اليأس، ولكنه يطمعك ويسحَبُ على المواعيد الكاذبة، حتى إذا طال العناء وكثر الجهد تكشف عن غير طائل، وحصلت منه على ندم لتعبك في غير حاصل..."[230].

---

[229] نفسه، ص33.

[230] نفسه، ص121.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كان هذا هو مذهبهم في الشعر الذي تعقدت تراكيبه في غير طائل كبير، فأحرى الشعرُ الذي تكثّفت عبارته وتعقدت ألفاظه في غير معنى أصلا.

ونختم هذا الكلامَ بملحة تناسب هذا السياقَ أوردها صاحبُ الموشح في فصل خصصه لِـ"ما جاء في ذمّ الشعر الرديء".

"قال محمد بن يزيد النحوي: جاء رجلٌ إلى الرشيد، فقال: قد هجوت الرافضة. قال: هات، فأنشد:

رغْما وشمْسا وزيْتُونا و مظلمــة * من أنْ تتالا من الشيخين طُغيانا

"قال: فسّره لي، قال: لا، ولكن أنت وجيشك اجْهَدْ أن تدريَ ما أقول، فإني والله ما أدري ما هو! "[231]

[231] الموشح، ص410.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خاتمة الفصول

لقد حاولت في فصول هذا الكتاب نقضَ بعض مقالات الحداثيّين المتطرفين في موضوع ما اشتهر في تاريخ الأدب العربي بالشعر المُحدَث، وبيانَ أن هذا الشعر المُحدَث، كما كان في زمانه، وكما تحدث عنه النقاد القدامى، وحللوه وقوموه وفصلوا الكلام فيه تفصيلا، لا علاقة له بهذا الشعر المُحدَث الذي صنعه الحداثيون صنعا، وتوهموه توهما، واختلقوه اختلاقا.

لقد سعيت، في أثناء صفحات هذا الكتاب، أن أعرض للشعر المحدَث في صورته الطبيعية، وفي سياق الملابسات التي أحاطت بظهوره، وأن أثبت بالنصوص الواضحة القاطعة أن مقالات الحداثيين المتطرفين، وعلى رأسهم أدونيس(علي أحمد سعيد)، وخاصة في أطروحته حول "الثابت والمتحول"، إنما هي تفسيرات وتأويلات أملتها دوافع إيديولوجية، وخلفيات عقدية فكرية، تقوم أساسا على رفض المرجعية الإسلامية، والطعن على كل ما يمت إلى هذه المرجعية من قريب أو بعيد.

لقد بنى أدونيس رؤيته إلى الشعر المُحدَث والشعراء المحدثين على ما أسمّيه مسلَّمَته الحداثية، التي يرى بموجبها أن الإلحاد كان أول شكل للحداثة في تاريخنا العربي الإسلامي. واستنادا إلى هذه "المسلمة الأدونيسية"، التي أوحت له بها خلفيته الايديولوجية، واختياره الفلسفي الإلحادي، أضحى كل خارج على الإسلام، في تاريخنا، مسلوكا في الثوريين والحداثيين والمبدعين.

ولا غرابة، بعد هذا، أن نجد أدونيس، في تحدّ سافر للتاريخ والنصوص ومدونات السِّيَر والأخبار، يَعدّ كبار شعراء العربية ملحدين لا يؤمنون بأي دين، لأن مسلَّمته تفرض أن الإسلام لا يمكن أن يكون منه إبداع، وإنما هو دين يكرس الماضي والتقليد والاتباع،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويحارب التجديد والحداثة في جميع معانيها وصورها وأشكالها وتعبيراتها.

لقد نظر الحداثيّون المتطرفون اللادينيّون إلى الإحداث في الشعر على أنه كان ثورة في وجه الجمود والتقليد، الذي يفرضه الإسلام ومؤسساته السياسية والفكرية والفقهية. وهذا النظر هو الذي جعلهم يغالطون بتسوية "المحدث" في الشعر بـ"المحدث" في الدين، بناء-في زعمهم-على أن الشعراء المحدثين كان ينظر إليهم وكأنهم خارجون على الإسلام، ومن ثَمّ عُدّوا في المبتدعة الضالين.

وقد حاولت، في فصول هذا الكتاب، أن أسقط القناع عن هذه المغالطات الحداثية، وأن أكشف، بالنصوص البينة التي لا تحتمل التأويل، الأخطاءَ التي بنى عليها أدونيس ومن سار على نهجه من الحداثيين المتطرفين، أطروحاتهم النقدية في شأن الشعر المحدث ونقده وتقويمه.

وقد كانت مني، في أثناء البحث، إشاراتٌ كثيرة إلى ما امتازت به آراء الحداثيين المتطرفين وأحكامهم من تناقضات ومبالغات وأوهام، لم يكن لها أي أساس من البحث الموضوعي، ولا أي موجب من قواعد النقد الأدبي الجاد. كما لم تفتني الفرصة لأناقش بعض ادعاءات الحداثيين بخصوص ما عدّوه فتحا جديدا، وقراءة حداثية لظاهرة الشعر المُحدَث في تراثنا الأدبي.

وبعد، فيمكن، في شيء من الإجمال، تسجيلُ ما توصل إليه البحث من نتائج في النقط التالية:

أولا: الإيديولوجيا الإلحادية المتطرفة كانت وراء كثير من الخلط الذي امتازت به مقالات الحداثيين بخصوص تناول مصطلح "مُحدَث"، وتحديد مفهومه الأدبي النقدي.

ثانيا: في معالجة ظاهرة الشعر المُحدَث، في تاريخا الأدبي النقدي، انطلق الحداثيّون المتطرفون، وفي مقدمتهم أدونيس، من أفكار مسبقة وأحكام مبيتة، فرضتها الخلفية الإيديولوجية الحداثية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اللادينية، ثم ذهبوا يضربون في كل الاتجاهات، ويركبون كل الوسائل، من أجل إيجاد الأمثلة، من تراثنا، من الشعراء وغيرهم، التي تصدّق هذه الأحكام وتلك الأفكار. وهذا الأسلوب أدى بهم إلى أن يغرقوا كثيرا في التكلف والتلفيق، إلى درجة التصرف في النصوص والأخبار والأحداث بما يخدم أهدافهم، وإن كان هذا التصرف على حساب مبادئ العلم والأمانة والموضوعية.

ثالثا: ظن الحداثيون أنهم جاؤوا بشيء بديع في قراءتهم وتقويمهم للشعر المُحدَث. والحقيقة أنهم لم يأتوا بأي جديد، وإنما جديدهم، في اعتقادي، أنهم خالفوا من أجل أن يُعرفوا. فالشعر المُحدث قد نال حظه وأكثر، عند القدماء والمحدثين، قبل أن يظهر أمر الحداثيّين المتطرفين. ويكفينا نظرة عابرة إلى عناوين مكتبتنا الأدبية النقدية، قديما وحديثا، لنقف على هذه الحقيقة.

رابعا: لقد حاول الحداثيون المتطرفون، وأدونيس منهم بصفة خاصة، أن يجعلوا بين الشعر المُحدَث "القديم" وشعرهم الحداثي المزعوم نسبا، ليبنوا على ذلك أن الشعر الحداثي، الذي يوجدون على رأسه، هو من شجرة الشعر المُحدَث الراسخة الخالدة. وهذا من الأماني والأحلام التي ما تزال تراود الحداثيّين، وكأنهم يشعرون أن شعرهم الحداثي سيظل معدودا في اللقطاء ما لم يجدوا له سببا يربطه بالتراث، وما لم يتوصلوا أن يخلقوا له صلة قرابة، وعلاقة عائلية تجمعه بالمبدعين من كبار شعراء العربية الخالدين. وإنهم مستعدون أن يفعلوا أي شيء، ولو كان باطلا محضا وكذبا مبينا، من أجل أن تتحقق أحلامهم وأمانيهم.

انتهت خاتمة الفصول، ومن الله، تعالى، التوفيق والتسديد، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثبت المصادر والمراجع

مصادر

1. أخبار أبي تمام، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي، حققه وعلق عليه: خليل محمود عساكر، محمد عبده عزّام، نظير الإسلام الهندي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (بلا طبعة(-ط)، ولا تاريخ(-ت)).
2. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية، ط2(-ت).
3. إعجاز القرآن، للإمام أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط3، 1416هـ/1995م.
4. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت، ط4، 1398هـ-1978م.
5. الأمالي، لأبي علي القالي(إسماعيل بن القاسم البغدادي)، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، (-ط،-ت).
6. إنباه الرواة على أنباه النحاة، للوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي(ت624هـ)، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة/ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1406هـ/1986م.
7. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للحافظ جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت.(-ط،-ت).
8. البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت-لبنان(-ط،-ت).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

9. تاج العروس، لأبي الفيض، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، المشهور بمرتضى الزبيدي.
10. تهذيب الأسماء واللغات للإمام الحافظ أبي زكرياء محيي الدين بن شرف النووي(توفي سنة**676**).
11. الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط**3**، **1388**هـ-**1969**م.
12. دلائل الإعجاز(في علم المعاني)، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت-لبنان، **1402**هـ-**1982**م،(-ط).
13. زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت-لبنان، ط**4**، **1972**م.
14. سر الفصاحة، لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط**1**، **1402**هـ-**1982**م.
15. سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه شعيب الأرنؤوط/ مؤسسة الرسالة، ط**7**، **1410**هـ-**1990**م.
16. شرح صحيح مسلم، للإمام الحافظ أبي زكرياء محيي الدين بن شرف النووي .
17. طبقات الشعراء، لابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، سلسلة ذخائر العرب، رقم **20**، ط**3**،(-ت).
18. طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة،(-ط،-ت).
19. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحميد، طبعة دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء-المغرب، **(-ط،-ت).**

20. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة دار الريان للتراث، القاهرة، ط**2**، **1409**هـ-**1988**م.

21. فحولة الشعراء، لأبي حاتم السجستاني، تحقيق ودراسة د.محمد عبد القادر أحمد، القاهرة، **1411**هـ-**1991**م، **(-ط).**

22. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للإمام أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، راجعه وعلق عليه طه عبد الرؤوف سعد، دار الشرق للطباعة، صفر **1388**هـ-مايو **1968**م، **(-ط).**

23. الكامل، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، **(-ط،-ت).**

24. لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي.

25. مجالس العلماء، لأبي القاسم عبد الرحمن الزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، ط**2**، **1403**هـ-**1983**م.

26. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للعلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، **1408**هـ-**1987**م.

27. الموازنة، لأبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي، حقق أصوله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت-لبنان، **(-ط،-ت).**

28. الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، لأبي عبد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق وتقديم محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط**1**، **1415**هـ-**1995**م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

29. نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق د.محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، **(-ط،-ت).**
30. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار الكتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني ببيروت، **(-ط،-ت).**
31. الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح محمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، **(-ط،-ت).**

مراجع

1. أبو تمام الطائي، حياته وحياة شعره، للدكتور نجيب محمد البهبيتي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، **(-ط،-ت).**
2. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط**4**، **1394**هـ-**1974**م.
3. الثابت والمتحول، علي أحمد سعيد(أدونيس)، دار العودة، بيروت، ط**3**، **1980.**
4. حديث الأربعاء، د.طه حسين، المجلد الثاني من المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبناني، ط**2**، **1974.**
5. حركية الإبداع(دراسات في الأدب العربي الحديث)، د.خالدة سعيد، دار العودة، بيروت، ط**1**، **1979.**
6. الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام، للدكتور عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، القاهرة(-ط،-ت).
7. الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم، تاريخها وقضاياها، د.عثمان موافي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية-مصر، **(-ط،-ت).**
8. زمن الشعر، أدونيس، دار العودة، بيروت، ط**3**، **1983.**

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

9. السنة والبدعة، تأليف عبد الله محفوظ محمد الحداد باعلوي الحضرمي، دار القلم بدمشق، ودار الشامية ببيروت، طبعة دار القلم الأولى، **1413**هـ-**1992**م.
10. الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاتها، د.محمد بنيس، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط**1**، **(**بين عامي **1989**و**1990)**.
11. الشعرية العربية، أدونيس، دار الآداب، بيروت-لبنان، ط**2**، **1989**.
12. عصور الاحتجاج في النحو العربي، د.محمد إبراهيم عباده، دار المعارف بمصر، **1980**،**(**-ط**)**.
13. المصطلح النقدي في "نقد الشعر**(**دراسة لغوية تاريخية نقدية، د.إدريس الناقوري، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس-ليبيا، ط**2**، **1394(**و.ر[وفاة الرسول]**)**-**1984**م.
14. معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط**3**، **1400**هـ-**1980**م.
15. مقدمة للشعر العربي، أدونيس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط**5**، **1406**هـ-**1986**م.

مراجع بالفرنسية

1. Conversations avec Adonis, mon père, Ninar Esber, éditions du Seuil, mars 2006.
2. Le Figaro, supplément littéraire, 16 décembre 2004.
3. Le regard d'Orphée, Adonis, conversations avec Houria Abdelouahed, éditions Fayard, avril 2009.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مجلات

1. "شعر"، مجلة دورية أسسها في لبنان يوسف الخال.
2. **"مواقف" للحرية والإبداع والتغيير، بيروت-لبنان.**

دواوين

1. ديوان أبي نواس، شرحه وضبطه وقدّم له ذ.علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط2، **1414**هـ-**1994**م.
2. ديوان الشعر العربي، اختاره وقدم له علي أحمد سعيد(أدونيس)، منشورات المطبعة العصرية، بيروت-صيدا، الكتاب الأول، ط1، **1964**، الكتاب الثاني، ط1، **1964**، الكتاب الثالث، ط1، **1968**.
3. شرح ديوان أبي تمام، للخطيب التبريزي، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط1، **1413**هـ-**1996**م.

الطبعة الأولى ، **2015**

رقم الإيداع القانوني :**2015MO0483**

الترقيم الدولي(ردمك): **978-9954-34-942-7**

الإخراج: دار مجد للنشر و الإنتاج .فاس ، المغرب

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عبد العالي مجذوب

لم يُسقط الشعراء المحدثون ركنَ الوزن في الشعر، ولا أنكروا أساسَ البيت، تاما أو مجزوءا أو مشطورا، في بناء القصيدة، ولا استهانوا بالمُخاطب المتلقي بقذفه بعبارات هي لغو في لغو، على أنها "إبداع شعري"، ولا جاهروا، في أشعارهم، بالإلحاد وتناولوا مقدسات الإسلام بالجحود والتجريح .

لقد بلغ البهتان الحداثي أوْجَهُ حينما تمّ وصفُ شعراء محدثين مسلمين، كأبي نواس وأبي العلاء، مثلا، بأنهم كانوا مُلحدين. وهذا البهتانُ إنما يفضحه أن أشعار هؤلاء الشعراء، وما وصلنا من أخبارهم الموثوق بها، وليس الأخبار الموضوعة المدسوسة، تشهد بإيمانهم، رغم ما اشتهر عن بعضهم من خلاعة ومجانة وسخافة. أما مطويات ضمائرهم، وسرائر قلوبهم، فأمرها إلى الله، سبحانه، الذي (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)."

(من مقدمة الكتاب)

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

شبكة الألوكة www.alukah.net

فصول في الشعر المُحدَث

دار مجْد
للإنتاج و النشر
فاس-المغرب

الجديد و الحصري
NEW & EXCLUSIVE